أسلوب القرآن

فى كشف النفاق

البحث الفائز بالجائزة الأولى
فى مسابقة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دكتور عبد الحليم حفنى

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى الحلمية الجديدة
تليفون ٩١٩٣٧٧

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك
لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة
فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿ ذلك بأنهم آمنوا
ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك
أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون
كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿
وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم
يصدون وهم مستكبرون ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر
لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴿ هم الذين
يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن
السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴿ يقولون لئن
رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله
وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم
أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك

هم الخاسرون ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون .

[صدق الله العظيم]

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كثيراً ما تساءلت فيما بيني وبين نفسي عن طبيعة النفاق، ولماذا كان المنافقون أسوأ الناس خلقا، وكانوا كما يحدد القرآن الكريم أشد الناس عذاباً يوم القيامة، وهذا يدل على أنهم أعظم الكافرين جرما في الدنيا. ولم يرح نفسي ما وجدته من تعليل لذلك.

وكذلك حاول كثير من العلماء والباحثين أن يحددوا صفات المنافقين ومسالكهم، ولكن القرآن الكريم كان أدق وأعمق وأشمل لكل ما يتعلق بالنفاق.

وهذه محاولة لفهم طبيعة النفاق من جهة، ولتحديد أهم صفات المنافقين من جهة أخرى، وذلك على ضوء القرآن الكريم، وكانت سورة (المنافقون) محور توجيهات القرآن في هذا السبيل، وقد استعنت في هذه المحاولة ببعض اتجاهات علم النفس وعلم الاجتماع.

على أن النفاق ظاهرة لا يقتصر خطرها على المجال الديني ، وإنما نجد المنافقين منبثين فى كل مواقع الحياة ، فإن المنافق لا ينافق فى الدين وحده ، وإنما ينافق فى كل شيء ومع كل إنسان .

ولست آمل أن يكون هذا الحديث نظرية علمية لا تقبل الجدل ولا التعديل بل ولا النفي ، وإنما آمل أن يكون حفزا للباحثين إلى طرق موضوع خطير على الدين والدنيا وهو النفاق ، وما أوضح هدايتنا لو اتخذنا القرآن الكريم دائماً مصباحاً ومنهاجاً فى كل أمرنا .

وقد تقدمت بهذا البحث إلى مسابقة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٦٥ م ففاز بالجائزة الأولى وكان بعنوان « التوجيهات الدينية فى سورة (المنافقون) » وكان هذا العنوان أحد الموضوعات التى تطلب المسابقة الكتابة فيها .

وأسأل الله جل علاه التوفيق ؟

د . عبد الحليم حفنى

النفاق والمنافقون

تدور مادة النفاق حول الاستتار والاختفاء: فنفوق الدابة موتها. وفي الموت اختفاء، ويقال نفق الشيء إذا نفد وفني، والنَّفَق سَرَبٌ في الأرض ينتهي إلى مكان، والنافقاء جُحَرَة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها فإذا أتاه الخطر من جهة لاذ بالأخرى، ونفاق الدين ستر الكفر وإظهار الإيمان.

ففي كل هذه الاستعمالات وغيرها من مادة النفاق يكمن معنى التخفي، وهو ما يسمى في فقه اللغة بدوران المادة حول معنى واحد.

ومن هذه الاستعمالات أخذ الإسلام اصطلاح النفاق، ووضعه على الشخص الذي يخفي في نفسه الكفر، ويتخذ من الإسلام شعاراً ظاهرياً يحمى به نفسه، وأقرب الاستعمالات إلى الاصطلاح الإسلامي نافقاء اليربوع، فقد عرف العرب اليربوع مخادعاً مخاتلا، يجيد حماية نفسه بالمبالغة في التحفظ والاحتياط، فيتخذ لنفسه جحراً ذا فتحتين في طرفيه، فإذا أتاه الخوف من إحداهما

يوجد المهرب فى الأخرى ، وكثيراً ما يجعل لجحره مدخلا فقط ، ثم يجعل نهايته بحيث لا يفصلها من وجه الأرض إلا حاجز رقيق ، فإذا اقتحم جحره خطر استطاع أن يضرب برأسه هذا الحاجز الرقيق فإذا هو حر طليق فى الطرف الآخر من جحره . وهذا الجحر كانت تسميه العرب النافقاء .

هذه الخصائص التى تميز بها اليربوع فى سلوكه ، كانت معروفة لدى العرب ، وكانت شبيهة بخصائص أولئك الذين عرفهم المسلمون يفتنون فى تغليف كفرهم بأغلفة شتى حتى لا يظهر عليه المسلمون.

وحتى لا يتشعب الحديث ويجنح إلى الاستطراد نقول إن هذا الفصل يقتضى أسئلة معينة ينبغى الإجابة عنها . وهى :

١ — ما وضع النفاق بين الصفات النفسية والخلقية ؟

٢ — لماذا ركز الإسلام العداء على نفاق الكفر ؟

٣ — لماذا تركز النفاق فى المدينة ؟

٤ — ما أثر النفاق فى خلق أهل المدينة ؟

٥ — ما موقف السورة من المنافقين ؟

السؤال الأول :

فأما السؤال الأول فللإجابة عنه نقول :

لنضرب مثلا من النفاق العادى أو العام (أعنى غير نفاق الكفر) ، فلننظر إلى شخص — على أساس أنه منافق فى سلوكه — جاءك وكل ما فى نفسه من هدف أن يحصل منك على شئ من المال بصفته قرضاً أو على سبيل التغرير ، أنظر إلى الوسيلة التى يسلكها ، والسقطات التى يهوى فيها تحقيقا لغايته ، أنظر إليه حين يلقاك متهللا سعيداً بلقائك ، مثنيا على الفرصة الطيبة التى جمعته بك ، سائلا مهتما بصحتك وأحوالك ، وصحة الأنجال وأحوالهم ، لاعناً المشاغل التى تحرمه التمتع بلقائك . سارداً التاريخ الطويل الذى يجمع بينكما ، وقد يكون بين أبويكما وأجدادكما ، مضفياعليك كل ما فى الحياة من صفات طيبات ومكرمات ، وبعد هذا ونحو هذا يسرد عليك أطرافاً مؤثرة من الظروف القاسية التى تحيط ببعض منكودى الحظ فتلقيهم فريسة للهم واحتياج المال ، كما حدث له هو حين أطبقت الأمراض على زوجه التى هى طيبة محسنة ، والتى هى أم أولاده الصغار ، فأنفق كل شىء ، أو يروى لك قصة إبنه الذى قرر له الأطباء إجراء عملية غدا وتلك النكبة التى

حلت به أمس ، ثم كيف آثرك أنت وحدك دون العالمين بهذه المكرمة ، مكرمة أن تقرضه شيئاً من المال ثم يقسم لك المحرجات من الأيمان أن هذا القرض سيكون في جيبك خلال أسبوع ، أو أقصاه يوم القبض ، إن كان صاحبك من الموظفين ، ثم يدعوك إلى زيارته عاتباً عليك أنك تحرمه دائماً من رؤياك ... إلى آخره .

كل هذه المظاهر التي يبديها هذا المنافق لا تعبر عن شيء من الحقيقة ، بل إنها تكاد تكون عكس الحقيقة على طول الخط ، فلا هو سعيد ولا هو مغتبط بهذا اللقاء ، بل إنه ليمقت هذه الساعة التي لا يعلم مصير مسعاه فيها أو التي يخشى منها انكشاف حقيقته ، ولا هو قد أحاطت به ظروف قاسية ، ولا هو صادق في قسمه ، ولا هو جاد في وعده وهكذا .

فانظر إلى هذه السقطات الخلقية إنها على أحسن الفروض ، التملق والكذب وخلف الوعد ، ووراء هذه الصفات تكمن أشياء كثيرة ، تكمن أمراض نفسية عميقة ، فوراء التملق يكمن فقدان الثقة بالنفس ، ووراء الكذب يكمن العجز عن مواجهة الواقع ، ووراء خلف الوعد يكمن الهرب من المسئولية والاستهتار ، وهذه الأمراض في جملتها تكشف لنا عن صاحبها ؛ فإذا هو مهزوز

الشخصية منزوع القيم والمقومات أى أنه تافه لا يساوى فى ميزان القيم الإنسانية شيئاً ، مع أن هذا المنافق الذى نضرب به مثلا يعتبر تلميذاً ناشئاً فى مدرسة النفاق أو طفلا دارجاً إذا قيس بالنفاق الأكبر ، نفاق الكفر الذى هو موضوع البحث .

ونريد من هذا أن نقول إن هناك فرقا كبيراً بين النقائص التى يوصف بها أى إنسان وبين النفاق ، فإذا وصفنا شخصاً بأنه جبان أو بخيل مثلا فمعنى ذلك أنه يحمل صفة ممقوتة لأنها تتنافى مع المبادىء التى تعورف على أنها خلقية ، وكونه يحمل صفة ممقوتة يعنى أن جانبا معينا وزاوية خاصة فيه هى الفاسدة ، وهذا لا يمنع من صلاحية بقية الجوانب فيه كشخص فسد عضو من أعضائه ، لا يمنع ذلك صلاحية بقية جسمه للحياة السليمة إذا زال هذا العضو ، بل لا مانع من إصلاح هذا الجانب نفسه أو استبدال ما هو صالح به ويبقى صاحب هذا العضو سليما صالحاً للحياة .

أما المنافق فإن فساده ليس جزئيا ، بل هو فساد كلى ، وحتى إذا كان جزئيا فإن فساده يكون فى الجزء الذى تتوقف عليه الحياة كالجذر بالنسبة للنبات والقلب بالنسبة للإنسان ، فقد رأينا فى المثال السابق — وهو أبسط صور النفاق — كيف ينتهى النفاق إلى هدم كيان صاحبه .

فالنفاق بطبيعته يستلزم عدة صفات غير خلقية يقتضيها اكتساء الإنسان ثوبا غير ثوبه الحقيق ، واعتماده في حياته الاجتماعية على هذا الثوب الزائف ، وهذه الصفات المعقدة ليست جزئية في جملتها أو في نهايتها ، لأنها تنتهي بهدم الكيان الشخصي للمرء ، وهذا واضح من مجرد قبول الإنسان أن يخلع شخصيته الحقيقية ليلبس شخصية زائفة مصطنعة يختفي وراءها ، وهذا الاختفاء معناه موت الشخصية من الناحية الاجتماعية ، لأن الناس لا يرون الشخصية الحقيقية حينئذ حيث إنها مختفية وراء هذا القناع الزائف الذى نسميه النفاق وهذا معناه موت هذه الشخصية بالنسبة للناس ، وكذلك موتها بالنسبة لصاحبها ، لأن شخصيته أصبحت أمامه منقسمة ، شخصيته التي يراها الناس ، وشخصيته الحقيقية ، وقد تكون هناك شخصية ثالثة ، هي شخصيته كما يراها هو ، ومن المفهوم أن كل شخصية يمكن أن ينظر إليها من هذه الزوايا الثلاث الشخصية الحقيقية ، والشخصية كما يراها الناس ، والشخصية كما يراها صاحبها ، لكن كمال الإنسان ونقصه يكون بمقدار تقارب هذه الزوايا واختلافها ، فكلما كانت الزوايا متفقة كان صاحبها أقرب إلى الكمال ، وبالعكس . والمنافق نجد الزوايا فيه أكثر ما تكون اختلافا ، لأن شخصيته

الحقيقية فى درجة من الفساد والسوء تجعله لا يستطيع إظهارها للناس ، فيتكلف إظهار شخصية أخرى ، وكذلك هو لن يرضى عن شخصيته الحقيقية — لأنه لو رضى عنها لأظهرها للناس — فينظر إليها نظرة الساخط الماقت ، ونظرة السخط غير أمينة فى النقد .

وننتهى من هذا إلى أن النفاق ليس نقيصة جانبية أو جزئية ، وإنما هو فساد جذرى فى أساس الشخصية ومحورها الحيوى ، وأن هذا الفساد قلما يرجى معه الصلاح ، كما لا يرجى صلاح النبتة إذا استحكمت العلة فى جذرها ، وكما لا يرجى شفاء الإنسان إذا استحكمت العلة فى قلبه ، وليس من المصادفة أن يحدد القرآن موضع المرض منهم فى القلوب بالذات « فى قلوبهم مرض » فإن تحديد القلب بالذات معناه أن المرض فى أخطر المواطن التى تتحكم فى الشخصية وتديرها .

بل يزيد القرآن هذا المعنى — وهو عدم الأمل فى صلاحهم وشفائهم من مرضهم النفسى الخطير — إيضاحا فيقول « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم »[1] ويعززه المعنى الآخر « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »[2]

(١) سورة المنافقون .
(٢) « التوبة آية ٧٩ .

بوثاً كيد عدم المغفرة معناه عدم الأمل فى صلاحهم .

ووصف القرآن للنفاق بأنه مرض ، سبق علمى للقرآن ، سبق به فرويد الذى يظن كثير من الناس أنه أول من لفت النظر إلى حديث العقد والأمراض النفسية ، واللاشعور والعقل الباطن ، وما إلى ذلك من مجالات علم النفس ، [وما كان أصلح هذا الموضع للإفاضة قليلا فى هذا المجال لولا قيود شروط المسابقة] .

السؤال الثانى :

وأما السؤال الثانى وهو : لماذا ركز الإسلام العداء على نفاق الكفر ؟ فنقول عنه : إن الإسلام فى واقع الأمر لم يقصر عداءه على نفاق الكفر ، وإنما حارب كل صور النفاق ، إلا أنه فرق بين النفاق البسيط أو الجزئى وبين النفاق المركب أو الجذرى .

ولما كان النفاق البسيط (غير الكفر) مرضاً جزئياً يرجى صلاحه ، أو حتى إذا لم يرج صلاحه بقى لصاحبه كيان صالح ، فالرجل الكذاب مثلا فيه جانب واحد فاسد هو عدم التزام الصدق ، وهو مرض جزئى يرجى علاجه ، وحتى إذا استعصى علاجه وبقى صاحبه يزاول الكذب ، فإنه قد تبقى لصاحبه فضائل أخرى كالشجاعة أو الأمانة أو الكرم أو غير ذلك ، وبهذا يبقى

لصاحبه كيان صالح مع فساد جزء فيه، كشخص ذى عاهة .

وأما نفاق الكفر فإن صاحبه يكون قد وصل إلى مرحلة من فساد المنابع الأساسية فى شخصيته لا يرجى معها شفاء ولا صلاح ، ومن أبرز هذا الفساد فقدانه الإيمان ؛ الإيمان بمعناه الواسع ، فإن الإيمان شعور فطرى يدخل فى تكوين النفس الإنسانية عامة ، ولذلك نراه ملازما لسائر المجتمعات فى مختلف أطوارها من البداوة والحضارة ، ويتمثل فى مظاهر عدة : يتمثل فى عبادة بعض المجتمعات للكواكب ، وبعضها للأوثان وبعضها لبعض الحيوان ، وهكذا ... لأن نزعة الإيمان بقوة خفية كبرى فى هذا الوجود نزعة طبيعية تمثل جزءا من تكوين النفس الإنسانية عامة ، ولعل هذا مرده إلى إحساس الروح — وهى من العالم الخفى — بهذه القوة الكبرى ، ثم يختلف أصحاب الأرواح فى فهمهم لهذه القوة حسب ما تهديهم مداركهم العقلية ، فنزعة الإيمان بالقوة الإلهية الخفية — أيا كان مظهر هذا الإيمان — نزعة طبيعية فى الإنسان ، والمجرد من هذه النزعة يعتبر شاذاً لأنه خارج على التكوين السوى للإنسان .

وإذن فالمنافق شاذ خارج على التكوين السوى للإنسان ، لأنه

فاقد لهذه النزعة ، نزعة الإيمان من حيث هو ، فلا هو مؤمن بالثوب الزائف الذى يخدع به النـاس ، ولا هو مؤمن بالثوب الحقيق ، لأنه لو آمن بأى منهما لتمسك به ، وعلى هذا نقول إن المنافق لو كان وثنياً فى أى صورة من صور الوثنية كعبادة الشمس أو الأصنام لـكان أقل شراً وأكثر خيراً من النفاق ، لأن الوثنية أولى مراحل الإيمان، فهى مرحلة الإيمان البدائى ، الذى يتمثل فى مجرد الإحساس النفسي بالقوة الإلهية ، وذلك لوجود الخيط الذى يربط الروح بعالمها الخفى ، هذا الخيط الذى نسميه الإيمان ، والذى يدل وجوده على استعداد النفس للإيمان الصحيح ، وعلى أن فيها خيراً ، وتجرد المنافق من هذه النزعة معناه عدم استعداد نفسه للإيمان وتجردها من الخير ، لأن الخير مجموعة فضائل نفسية مصدرها هذه البذرة العميقة : بذرة الإيمان ، ومعناه أيضاً أنه لم يصل بعد حتى إلى مرتبة الوثنية .

وليس غريبا أن نجد الإسلام يراعى هذا الفارق الدقيق بين المنافق والمشرك ، فيشهد للمشركين بأن قلوبهم تحمل إيمانا ، غاية الأمر أنه إيمان ضل الطريق القويم فيقول : « وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » إشـــارة إلى عبادتهم للأصنام .

أما المنافقون فإن قلوبهم لا تحمل إيمانا صحيحا ولا إيمانا ضالا ، وإنما تحمل مرضا « فى قلوبهم مرض » وهذا المرض ميئوس كل اليأس من شفائه كما يقول « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه »[1] وأما فتح باب التوبة أمامهم فسنناقشه فى الفصل الثالث إن شاء الله ونعود إلى بدء الحديث فنقول : يمكن تلخيص الإجابة على سؤال : لماذا ركز الإسلام العداء على نفاق الكفر ؟

فإن الإسلام حارب كل صور النفاق ، ولكنه اعتبر النفاق البسيط مرضا جزئياً يمكن علاجه ، فدعا إلى العلاج منه ، فى صحيح البخارى « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » وفى رواية أخرى أربع من كن فيه ، وأضافت الرواية « وإذا اؤتمن خان » وليس المهم العدد ، فإننا نعتقد أن ذكر هذه الخصال ليس حصراً لطبقات المنافقين ، وإنما للجوانب البارزة فيهم ، أو التى هى أكثر إضراراً بالناس ، ولكن المهم فى الموازنة بين هذه الصفات متفرقة وبينها مجتمعة ، أى بين ما نسميه النفاق الجزئى وبين ما نسميه النفاق

(١) سورة التوبة آية ٧٦ .

الكامل كما يفرق الطبيب مثلا بين الروماتيزم حينما يكون فى الأطراف وبينه حينما يصل إلى القلب .

وقد فرق بينهما الحديث بقوله فى الصفات الجزئية: « فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » ، مصرحا بأن هذه الصفات — مع أنها صفات نفاق — يمكن علاجها والتخلص منها بقوله : « حتى يدعها » أما النفاق الكامل فقد سكت عن إمكان علاجه أو التخلص منه مكتفيا بوصفه « كان منافقا خالصا » لمن اجتمعت فيه كل أعراض النفاق إشارة إلى اليأس من علاجه .

ومن هذا يتبين لنا لماذا ركز الإسلام العداء على نفاق الكفر أكثر من تركيزه على النفاق الجزئى وأكثر من تركيزه على الشرك نفسه ، هذا بالإضافة إلى الأسباب الأخرى المعروفة فى المقارنة بين النفاق والشرك ، من أن العدو الظاهر أيسر خطراً من العدو المستتر ، ومن أن معيشة المنافق بين ظهرانى المسلمين تجعله خطراً بعيد الأثر ، ومن أن ظهور المنافق بثوب الإسلام ييسر له نشر الفتنة بين المسلمين ويسهل له قيادة البسطاء والسذج من المسلمين ، ومن تركيز العداء عليهم أن حصر العداوة فيهم فى قوله « هم العدو فاحذروهم » .

السؤال الثالث :

وأما السؤال الثالث وهو : لماذا تركز النفاق فى المدينة وما حولها دون غيرها كمكة مثلا ؟ فإذا حاولنا الإجابة عنه نتساءل أيضاً :

هل برز النفاق بهذه الصورة فى المدينة لأن المسلمين لم يصبحوا قوة مخيفة إلا فى المدينة ؟ .

أم أن بين النفاق والحضارة سببا ، وقد كان قرب المدينة من أمم متحضرة كالفرس والروم وغير ذلك وخاصة الشام داعيا إلى ظهور النفاق فيها ؟ .

أم أن احتكاك أهل المدينة باليهود الذين يواطنونهم بالمدينة وما حولها كان سببا فى ظهور النفاق فيهم ؟ .

أم أن هذه الأسباب مجتمعة هى التى عملت على توطن النفاق بالمدينة ؟ .

والواقع أننا لا نستطيع أن نعتمد على سبب معين منها ونهمل غيره ، وقد يكون بعض الأسباب أقوى من البعض الآخر . ولكن هذا البعض الآخر مهما يبلغ من الضعف فإننا لا نستطيع إغفال أثره .

ولا شك أن السبب الأول وهو كون المسلمين لم يصبحوا قوة

مخيفة إلا فى المدينة هو من الأسباب الهامة التى تعتبر عماداً فى هذا الأمر .

فقد يقول قائل : أليس غريبا أن يظهر النفاق بهذه الصورة فى المدينة ولا يظهر فى غيرها من مدن الجزيرة العربية كمكة والطائف ونجران وصنعاء مع أن ظروف المنطقة كلها بما فيها يثرب (المدينة) متقاربة ، وأهلها شعب واحد ينتمى إلى أصل واحد ، ودين واحد باستثناء أقليات ضئيلة كيهود المدينة ، ونصارى نجران ، وأروام مكة ، وأحباش صنعاء ؟ .

ونقول حينئذ إن ظهور النفاق بصورة مركزة قوية فى المدينة دون غيرها حقيقة لا مراء فيها ، وقد سجل عليها القرآن الكريم ذلك فى قوله « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق » .

ولكن ظهور النفاق فى المدينة لا يعنى إنعدامه فى غيرها ، أو على الأقل لا ينفى استعداد غيرها من المدن لظهور النفاق فيها ، غاية الأمر أن الظروف تهيأت للنفاق فى المدينة ولم تتهيأ له فى غيرها حيث وجدت بذور النفاق تربة طيبة فى ظروف المدينة ، فنمت وترعرعت وآتت أكلها ، وقد يكون فى المدن الأخرى استعداد للنفاق ولكنه لم يجد الظروف الخصبة التى تساعد على نموه ،

وذلك ليس بغريب حتى فى الأمراض الجسمية ، فإن منها ما يكون موجوداً فى الجسم بطريق الاستعداد ، بحيث إذا وجد ظروفاً معينة كالإجهاد أو سوء التغذية ، أو سوء المناخ أو غير ذلك ، ظهر ، أما إذا لم توجد هذه الظروف فإنه يظل كامنا فى الجسم ، مع عدم ظهوره أو ظهور شيء من أعراضه ، فيكون موجوداً بالقوة لا بالفعل كما يقول المنطقيون .

أما الظروف التى تهيأت للنفاق فى المدينة فمن أهمها كما قلنا كون المسلمين لم يصبحوا قوة مخيفة إلا فى المدينة وهذا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بيان ، وهذه القوة المخيفة هى أنسب ظرف لنمو النفاق وترعرعه .

وذلك أن المنافق بطبعه وتكوينه فاقد للإيمان ، وبالتالى لكل المعانى والقيم ، فهو مادى بحت ، ونظرته إلى الحياة وإلى كل شيء مادية نفعية بحتة ، كل ما يعرض له يقيسه بميزان المنفعة المادية البعيدة عن الروحانيات والمعنويات وقد أصبح الإسلام فى المدينة قوة كبرى ، فنظر إليه المنافقون بمقياسهم النفعى المادى فوجدوه صفقة خاسرة ، لأنهم لن يجنوا من ورائه خيرا — ماديا — قط وإنما تلاحقهم بسببه تضحيات شتى يضطرون إلى بذلها من أوقاتهم

وجهودهم وأموالهم بل ودمائهم أيضا ، فهو إذن صفقة خاسرة أى خسران ، وإذن فليبقوا على ماهم عليه ، لتبقى لهم أموالهم ودماؤهم وغير ذلك ، ولكن الإسلام أصبح قوة مخيفة ، وعداؤهم إياه يعرضهم لمتاعب شتى ، ويفقدهم صلات كثيرة تعود عليهم بالنفع من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام ، فماذا يصنعون ؟ خير ما يصنعون أن يجمعوا بين المنفعتين ، يدخلون الإسلام ، ثم يحاولون جهدهم إلا يبذلوا له ذرة من إخلاص ، ولا ذرة من تضحية إلا ما تدعوهم إليه ضرورة لا محيد عنها ، وبذلك يخدعون المسلمين .

ومن ناحية أخرى يبقون على ما ظن الناس أنهم يدينون به من الدين القديم ، فيخدعون أصحاب هذا الدين أيضا ، وبذلك ينتفعون من أصحاب الدينين ، القديم والجديد ، « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون[1] » فهم يبغون النفع فى الطرفين ، ويكون توددهم وقربهم من أحد الطرفين بمقدار ما يدر عليهم من نفع ، وما أجمل تصوير القرآن الكريم لهذا الموقف منهم حيث يقول « ومن الناس

(١) سورة البقرة آية ١٣ .

من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين[١] ، وقوله « وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما[٢] » ويؤكد القرآن عدم إخلاصهم لكلا الدينين على السواء بقوله « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ولو لم يكن الإسلام قوة ، ولو لم تكن قوته مخيفة للمنافقين ، لما نافقوا ، أعنى لما وجد نفاقهم الظروف لنموه .

وقد يقال إن المسلمين وهم بهذه القوة ، وأكبر من هذه القوة قد احتكوا بمدن أخرى ، وقدموا عليها ظافرين ظاهرين كما قدموا على مكة والطائف وغيرهما ، فلم لم ينافقهم أهل هذه المدن ، كما فعل بعض أهل المدينة ؟ .

فنقول إن أهل المدينة وازنوا بين قوتين ، قوة الشرك وقوة الإسلام وظلوا « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ،

(١) سورة الحج الآية ١١
(٢) سورة النساء آية ٧١ ، ٧٢

أما أهل المدن الأخرى فحين جاءهم الإسلام بقوته ، لم تكن هناك قوة أخرى غيره يركنون إليها . لأن الشرك حينئذ كانت قد سقطت رايته وأفل نجمه ، فلم يروا أمامهم إلا قوة واحدة هى قوة الاسلام ، وإذن فلا مفر لهم من قبول الاسلام ، وكذلك كانوا فى بدء الاسلام ، حين لم يكن الاسلام قوة مخيفة ، لم يروا أمامهم إلا قوة واحدة ، هى قوة الشرك ، فلم يكن فى كلا الحالين مجال لظهور نفاقهم .

وقد قلنا آنفاً أن هناك أسباباً مهما يضعف أثرها فلن نستطيع إغفالها ، ومن هذه الأسباب احتكاك أهل المدينة بشعوب أخرى ، ودنوها من مواطن حضارات مختلفة بالشام والعراق وبقية بلاد الروم والفرس ، وقد كانت المدينة على طريق القوافل التى تمر بها وتستريح فيها ذاهبة وآيبة .

ولا شك أن النفاق — بالاضافة إلى الاستعداد الطبيعى — يحتاج النجاح فيه إلى شىء من ثقافة ، وشىء من ذكاء ، وشىء من مهارة خاصة ، لأنه عمل دقيق ، وأى شىء أدق من أن يستطيع المرء أن يجمع فى إهابه بين شخصين مختلفين كل الاختلاف ، ومايقتضيه ذلك من دقة فى كل كلمة يقولها ، وكل حركة يتحركها ،

كما نرى الممثل اليوم يحتاج إلى هذه الصفات .

وواضح أن هذه الصفات وخاصة الثقافة والمهارة الخاصة وليدة الحضارة ، وقد كانت المدينة أقرب إلى الحضارة من البلاد الموغلة فى الصحراء كسائر بلاد الجزيرة ، وحتى مكة التى جعلتها الكعبة مرتاداً للحجيج ، فإن روادها كانوا أيضاً من الصحراء فقط .

فالنفاق أقرب إلى خلق الحضارة منه إلى خلق العدو ، وقد يقول قائل أيضاً : إذا كنا قررنا أن النفاق يعتمد أولا على الاستعداد الطبعى فى صاحبه ، فكيف يكون هذا الاستعداد إذا وجد فى البدوى وماذا نسميه ؟

فنقول حقا إن الاستعداد يوجد فى كل بيئة وكل مستوى ، ولكنه فى البدوى يبدو فى صورة الغدر ، فالغدر والنفاق من معين واحد ، ولكن البدوى تقصر به ثقافته ومهارته فيختصر الطريق ويغدر بصاحبه من أول فرصة تسنح له ، فنسمى عمله غدراً ، أما المتحضر فإنه يتمادى ويتفنن فى تفلسف غدره وإطالة مداه فنسميه نفاقاً .

وأما النقطة الثالثة وهى مواطنة أهل المدينة لليهود ، فهى أن

خُلُقَ اليهود بطبيعته أقرب ما يكون إلى النفاق ، وليس في هذا الحكم تحامل طائفي أو عنصري ، وإنما هو حقيقة يؤيدها تاريخهم الطويل .

فالنفاق كما قلنا يعتمد على دعامتين ، إحداهما تجرد صاحبه من الشعور الديني وما يستتبعه من المبادىء والمثل ، والأخرى نظرته النفعية المادية إلى كل ما يعرض له .

واليهود وإن كنا لا نستطيع أن نقول بتجردهم من الشعور الديني ، إلا أننا نقول إنهم لا يأخذون الدين مأخذ الروحية ، وإنما يأخذونه مأخذ المادية النفعية ، فهم حين عرض عليهم الايمان بالله ، لم يستطيعوا أن ينظروا إليه نظرة روحية كما فعل غيرهم من الشعوب ، بل أصروا على النظرة المادية المحسوسة ، « وقالوا لن نؤمن حتى نرى الله جهرة » وحتى بعد دخولهم الدين ، أصروا على أن ينظروا إلى ذات الله سبحانه نظرة مادية نفعية فقالوا دون غيرهم من أصحاب الأديان كما وصفهم القرآن الكريم « وقالت اليهود يد الله مغلولة » كناية عن البخل ، أي كل ما كانوا ينظرون به إلى الله سبحانه هو نظرة نفعية مادية ، ورفضوا كل تضحية في سبيل دينهم دون أصحاب الأديان جميعاً فقالوا لنبيهم « اذهب

أنت وقومك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » وأخيراً ارتدوا عن دينهم ، لا ليعتنقوا ديناً آخر ، ولا ليدينوا حتى بدين باطل كما فعل مرتدو العرب ، وإنما ارتدوا ليعبدوا الذهب فى صورة عجل ، حين اتخذ لهم السامرى « من حليهم عجلا جسداً » وهم فى الواقع لم يعبدوا العجل ، وإنما عبدوا الذهب ، بالنظرة النفعية نفسها ، وتقديس اليهود للمال ، وتضحيتهم فى سبيله لكل المثل والفضائل معروف فى كل أنحاء العالم .

وهذا المضمون فى طبيعتهم وأخلاقهم ، وإن لم يكن هو النفاق إلا أنه أقرب ما يكون إلى النفاق .

وتقليد الغير والتأثر به قانون اجتماعى لا يشذ عنه الأفراد ولا الجماعات ، فلا تخلو مخالطة بين فردين أو مجتمعين من التأثر أو التأثير ، ولذلك لم يكن عجيباً ، أن يتأثر خلق أهل المدينة بخلق اليهود ، وأن يساعد هذا التأثر على ظهور النفاق فى عدد كبير من أهل المدينة ، بعضهم من العرب وبعضهم من اليهود ، وحتى الأمثلة والحكم الشعبية العامة تعرف هذا القانون الاجتماعى فى التأثر والتأثير بالمجاورة والمخالطة فمن هذه الأمثلة الشائعة : « من جاور القوم أربعين يوم صار منهم ، أو صار منهم » على أن مجاورة

المنافقين لليهود ولم تكن مجرد مواطنة ، وإنما كانت تتسم فى كثير من الأحيان بالصلات الشخصية كما تحدثنا الروايات ، فمن ذلك مايروى من أن النبى ﷺ حين عاد عبد الله بن أبى فى مرض موته قال له : « أهلكك حب اليهود » وفى رواية « أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود » فيما رواه ابن إسحاق ونقله صاحب الكشاف .

السؤال الرابع :

وأما السؤال الرابع ، وهو : ما أثر النفاق فى خلق أهل المدينة؟ فهو امتداد للحديث السابق ، ونعنى منه أن نجلو الصورة الحقيقية لخلق أهل المدينة ، ونقصد بأهل المدينه العرب ، أما اليهود الذين أقاموا فيها ، فقد ظلوا كما كانوا قبل الاسلام يهوداً فى أخلاقهم وطبيعتهم المعروفة .

وعن أهل المدينة العرب نقول : من الحقائق المعروفة أن النفاق لم يتجل بأقبح صوره وأبشعها كما تجلى فى المدينة ، وقد سجل عليهم القرآن الكريم ذلك كما ذكرنا ، ولذلك لم يتحدث القرآن عن النفاق إلا فى الآيات التى نزلت بالمدينة .

ولكن إذا كان النفاق تجلى بأبشع صوره فى بعض أهل المدينة ، فكيف كان خلق البعض الآخر ؟

وللإجابة عن هذا نستطرد قليلاً فنقول : إن الله قد خلق هذا الكون الكبير فى نظام عجيب ، لم تصل عقول البشر — وإن تصل — إلى إدراك كنهه وخفاياه ، ومن هذا النظام العجيب ، أن جعل الله لكل شىء شيئاً آخر يقابله أو يناقضه ، فحيثما تجد الشىء ، فستجد بجواره الشىء المقابل أو المناقض ، فالليل بجواره النهار ، والخير بجواره الشر ، والبحر بجواره البر ، وكل زيادة فى شىء يقابلها نقص فى شىء آخر ، فكلما انخفض جزء من الأرض عن السطح السوى ، ارتفع جزء آخر ، فحيثما يوجد البحر بانخفاضه يوجد بجواره الجبل بارتفاعه ، وهكذا فى الكون كله ، وكذلك فى المجتمع البشرى ، كل زيادة عن الوضع السوى يقابلها نقص بقدرها ، فالقوة فى الرجل يقابلها الضعف فى المرأة ، والثراء الفاحش فى مكان يقابله الفقر المدقع فى مكان آخر ، بل إن علماء الاجتماع لاحظوا أموراً فى غاية الدقة ، فما لاحظوه أن الأسرة التى يشتهر رجالها بالفروسية والشجاعة يشتهر نساؤها بالرقة والجمال ، والأسرة التى تنجب عباقرة وأفذاذاً لابد أن يكون فيها مجانين ومعتوهون ، وقد عللوا قلة ظهور العبقريات فى نوع المرأة بالنسبة لنوع الرجل ، بأن النساء متقاربات فى مستوياتهن العقلية والجسمية ؛ لأنهن

معيّن لغرض معين، وهذا الغرض لا يحتاج إلى اختلاف المستويات، أما الرجال فبعكس ذلك، ولذلك يختلفون فى مستوياتهم، وبمقدار ما يظهر فيهم من مواهب وعبقريات، يظهر فيهم الجنون والعته وسائر أنواع التخلف العقلى.

وعلى هذا النظام الكونى العجيب كان أهل المدينة، فبينما انحط فريق منهم إلى الدرك الأسفل كما وصفهم القرآن الكريم وهم المنافقون، ارتفع فريق آخر منهم إلى الدرك الأعلى فى الخلق المتين، وهم الأنصار.

وليس من شك فى أن الأنصار ليسوا فى حاجة إلى مجرد التزكية، وليس من شك أيضاً فى أن الحديث عن فضائلهم معاد غير ذى جدوى، وإنما أتحدث عن أنهم بلغوا قمة الفضل وسمو الخلق، وأنه ليست هناك غاية خلقية قصروا دون بلوغها، وقد شهد لهم القرآن وشهد لهم الرسول وشهد لهم التاريخ بما لم يشهده لغيرهم.

ومن أيسر الأمثلة على أنهم كانوا أسمى الناس إخلاصاً وتضحية موقفهم يوم حنين إذ انفض المسلمون عن رسول الله ﷺ من هول المفاجأة التى فاجأتهم بها ثقيف من الكمائن، حتى بقى النبى فى نفر معدود من خلصائه، ونادى العباس الناس بأسمائهم

— كما أمره النبي — فما عرفت جماعة ولا عشيرة من المسلمين قط كانت أسرع استجابة من الأنصار ؛ فإنه ما إن قال العباس : يا معشر الأنصار رسول الله يناديكم ، حتى انعطفوا إلى الرسول — كما وصفهم الرواة — كما تتعاطف النوق إلى صغارها ، وقد يكون في المسلمين أفراد يفوقون الأنصار فضلا وإيماناً ، ولكن الأنصار كجماعة نالوا من شهادة الله لهم وشهادة رسوله ما لم تحظ به جماعة أخرى ؛ فما شهد القرآن الكريم لجماعة معينة كما شهد للأنصار في قوله « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1] . والوصف الأخير من أسمى ما يوصف به إنسان من خلق ، وكذلك شهادة الرسول لهم إثر غزوة حنين ، في خطبته التي ملئت اعترافاً بفضل الأنصار ، وثناء عليهم لم يحظ به غيرهم قط ، هذه الخطبة التي قال لهم فيها : « أما ترضون أن يرجع الناس بالإبل والغنم ، وترجعون أنتم برسول الله ؟ » والتي ختمها بأن دعا ربه أن يحشره مع الأنصار

---

(١) سورة الحشر الآية ٩

— لا أن يحشر الأنصار معه — على أسلوب التشبيه المقلوب ، زيادة فى تكريمهم .

وبهذا نرى فى المدينة وجهين ، أحدهما فى غاية القبح ، وهو وجه المنافقين ، والآخر فى غاية الحسن ، وهو وجه الأنصار .

السؤال الخامس :

وأما السؤال الخامس وهو : ما موقف السورة من المنافقين ؟

فإن فيما يأتى من البحث إجابة عنه ، ولكننا نقول هنا بصفة عامة : إن هذه السورة كانت أكبر ضربة حاقت بالمنافقين ، وأشد خيبة منيت بها آمالهم ؛ فقد كانوا يعتقدون أنهم يعملون فى خفاء شديد ، وأنهم فى مأمن أمين من أعين المسلمين ، وأنهم فى الوقت نفسه أذكى وأبرع من المسلمين ، حيث استطاعوا خديعتهم ، وإذا الظلام الحالك الذى يعيشون ويعملون فيه ، يبدده نور ساطع يأخذ عليهم جميع أقطارهم ، وكان هذا النور نور القرآن الكريم ممثلا فى سورة « المنافقون » .

كم وددت أن تتضافر جهود العلماء ، كل فى ميدان اختصاصه ، ثم توجه هذه الجهود إلى تفسير القرآن الكريم على مناهج علمية دقيقة ، ولا أعنى بالعلماء علماء الدين ، وإنما أعنى العلماء بصفة عامة ، فإن القرآن الكريم مهما يطل به الزمان عن منبعه ، ومهما ينأ به المكان عن هذا المنبع ، فإن فيه ذخيرة من العلم والمعرفة ، لم تزل العقول تلاحقها فلا تدركها ، وأقدر الناس على إدراك معارف القرآن هم العلماء ، فأقدر الناس مثلا على فهم الآيات الكونية فى القرآن وتقدير عظمتها هم علماء الفلك ، وأقدر الناس على إدراك قوانين القرآن وتشريعه هم علماء القانون ، وأقدر الناس على إدراك دقة توجيهاته النفسية وعمقها هم علماء النفس ، وهكذا فى كل مجالات العلم — وما أكثرها — فالعالم المتخصص أقدر الناس عادة على فهم كل ما يتعلق بموضوع تخصصه ، وعلى تفهيمه لغيره أيضا ، وقد وجهنا القرآن الكريم هذه الوجهة حيث يقول : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وهذا العالم أيا كان عنصره يكون أعمق الناس إيمانا حين يتاح له أن يلمس إعجاز القرآن فى موضوع تخصصه ، فالعلماء أقل الناس تعصبا وأكثرهم رجوعا إلى الحق متى ظهر ، وأقربهم إلى التسليم بالحقائق

ولو كانت مخالفة لما اعتقدوه أو تعصبوا له ولذلك يقول القرآن نفسه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وكثير من المفسرين — ولهم شيء من عذر — تقصر بهم معرفتهم أمام بعض الروائع القرآنية التي تقتضي ثقافة خاصة ، لأنها تطرق علما خاصا كعلم الفلك أو علم الأحياء أو غير ذلك ، فيغطون هذا القصور بإطلاق بعض العبارات الروحية العامة ، كأنهم يتصورون أن القرآن روحانية بحتة متناسين قوله « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، وحين لا تصلح هذه العبارات الروحية للغطاء يكتفون بالشرح اللغوي للألفاظ .

وإنما سقت هذه المقدمة العجلى لأقول إنه من الأمثلة على أن تفسير القرآن الكريم يحتاج إلى متخصصين في مختلف العلوم ، سورة « المنافقون » فإنها فضلا عما تحتوي عليه من مواعظ دينية ولمحات روحية ، تحتاج إلى دراسة دقيقة على ضوء علم النفس ، أو بمعنى أدق ، ينبغي أن تعاد دراسة أسس علم النفس على ضوئها ، وأقول أسس علم النفس ، ولا أقول علم النفس ، لأن علم النفس إنما قام على أسس محدودة أهمها محاولة تعليل السلوك الإنساني ، والرجوع بسلوك الشخص — وخاصة السلوك غير الطبيعي —

إلى الدوافع النفسية فى هذا الشخص ، فالانطواء على النفس مثلا والخوف من الظلام ، وحب الاستيلاء على أملاك الغير ، والرغبة فى التغرير بالناس ، وما إلى ذلك من مختلف مظاهر الشذوذ فى السلوك ، يحاول علم النفس تحليل كل منها والبحث فى نفسية صاحبها عن الدافع وراء هذا السلوك .

ولا شك أن علم النفس الحديث قطع فى بحوثه أشواطاً طويلة ، وصاحبه التوفيق فى كثير منها إلى درجة تثير الإعجاب، وأصبح كثير من الناس يعجبون كيف أن علم النفس يستطيع أن يحدد شخصية إنسان ما فى كثير من الأحيان وتحديداً أخلاقه وميوله من مجرد تصرفاته وسلوكه ، بل أصبح يستعان بعلم النفس فى الكشف عن شخصيات المجرمين من مجرد تصرفاتهم التى تمت بها الجريمة والتى صاحبت تلك الجريمة .

ولكننا حين نرجع إلى سورة « المنافقون » نرى من ذلك الشىء العجيب ، ونعلم علم اليقين أن القرآن الكريم الذى نزل منذ أربعة عشرة قرنا يعتبر أماً عريقة وأن علم النفس الذى يتأرجح فى نحو قرن من الزمان يعتبر طفلا وليداً بالقياس إلى القرآن الكريم .

وإذا كان من أهم ما يعتز به علم النفس استطاعته الربط بين

سلوك الشخص ونفسيته ، وتحديد الشخص من تصرفاته ، فإن القرآن الكريم وخاصة سورة « المنافقون » يعتبر قمة لا تدانى فى هذا الميدان ، ويكفى دليلا على ذلك أن سورة « المنافقون » قد استطاعت تحديد طائفة من الناس تحديداً دقيقا لا لبس فيه ، لا بأسمائهم ، ولا بتحديد أماكنهم ، ولا بذكر أنسابهم ، وإنما بمجرد سلوكهم وتصرفاتهم ، حتى قال الرواة إنه لم يبق بالمدينة منافق بعد نزول سورة المنافقون إلا عرفه المسلمون .

وقد كان يمكن كشف المنافقين للمسلمين عن طريق الوحى فكان يمكن أن يقول الوحى لمحمد ﷺ إن فلانا وفلانا وفلانا منافقون فاحذرهم ولكن براعة القرآن الكريم وإعجازه ، تعدت ذلك إلى وضع قائمة دقيقة تتكون من مجرد أوصاف وتصرفات ، لتكون هذه القائمة منظاراً دقيقاً ينكشف أمامه النفاق فى كل زمان ومكان .

وحيث إن المنافقين يتذبذبون بين طائفتين أو بين قوتين ، قوة الإسلام ، وقوة الكفر ، فقد حددت السورة سلوكهم حين يواجهون كلا من القوتين ، فلننظر لنرى إلى أى حد بلغ سمو القرآن الكريم فى المجال النفسى .

(أ) المنافقون في مواجهة قوة الإسلام :

استهلت السورة أوصاف المنافقين بسلوكهم فى مواجهة قوة الإسلام ، مشيرة إلى هذه المواجهة بقوله تعالى « إذا جاءك المنافقون ، وكل لفظ فى « إذا جاءك » يفيد تحقق شعورهم بأنهم فى مواجهة قوة الإسلام وعنوان هذه القوة الرسول صلوات الله عليه ، فلفظ « إذا » يفيد التحقيق ، ومعنى ذلك أن الصفات الآتية لهم إنما تبدو فى حال تيقنهم بأنهم أمام هذه القوة ، بخلاف ما لو كان التعبير إن جاءك مثلا ، أو لو جاءك ، كما هو معروف عند البلاغيين ولفظ « جاء » يفيد شعورهم بالهوان حيث إنهم اضطروا إلى السعى والمجئ إلى النبى للزلفى أو لستر ما قد يشاع عنهم أو يظن بهم من النفاق ، بخلاف ما لو كان التعبير مثلا إذا كان المنافقون لديك ، واللفظ الثالث وهو كاف الخطاب فى «جاءك» يفيد تحقق وجودهم أمام أبرز موضع فى قوة المسلمين وهو شخصية الرسول عليه السلام .

وهذه النقاط البلاغية كلها تتركز فى هدف واحد ، هو شعور المنافقين شعوراً قوياً بأنهم فى مأزق حرج ، لأنهم اصطدموا اصطداماً مباشراً بالقوة التى ينافقونها .

فكيف يكون سلوكهم حينئذ ؟ حددت السورة الكريمة تصرفاتهم كما يلى :

أولا : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » .

وسواء أكان قولهم نشهد مراداً به الشهادة المألوفة ، أم مراداً به الحلف كما يختلف المفسرون ، إلا أن الغاية واحدة وهى تأكيدهم أنه رسول الله ، وليس المهم فى تحديد معنى معين ، وإنما المهم ، لماذا يحرصون على إثبات إسلامهم بإقرارهم رسالة محمد ، مع أنهم مسلمون حسب ادعائهم وظاهرهم ؟ فهنا أولى النقط التى تثير الانتباه ، وهى أنه ما الذى يدعوهم إلى الحرص على أن يكون أول ما يبدأون به النبى حين يواجهونه هو تأكيد أنهم مسلمون ، مع أن المفروض أنهم معدودون بين المسلمين ، والمسلمون أنفسهم يعدونهم منهم ؟ ومع أن المقام لم يقتض منهم هذا الحديث ، فلم يسألهم سائل : هل أنتم مسلمون ؟ وهل تعتقدون أن محمداً رسول الله ؟ وليس من المألوف أن المسلمين حينما يأتون إلى النبى يؤكدون له إسلامهم ويقولون له نشهد إنك رسول الله .

ولكن كما يقول العرب ، يكاد المريب يقول خذونى ، وكما يقول علم النفس ، إن الذى يركز حديثه دائماً على نفى شئ عن نفسه

يدل على أنه متصف بهذا الشئ ، فالذى يحدثك دائماً عن إخلاصه وحبه وينفى دائماً عن نفسه سوء النية يدل على أنه يشعر نحوك بعكس ذلك ، والذين يتشدقون دائماً بنزاهتهم ، وينفون عن أنفسهم دائماً الانحراف والزيغ عن الأمانة ، هم أبعد الناس عن الأمانة ، وبمقدار ما يكون من قوة تأكيدهم ونفيهم يكون اتصافهم بهذه الصفة التى ينفونها عن أنفسهم ، وكذلك كان المنافقون ، لما كانوا أبعد الناس عن الإسلام ، وهم يعرفون ذلك من أنفسهم ، فيخيل إليهم أن الناس يكادون يطلعون على ما فى نفوسهم ، فيسارعون إلى إخفاء ما يتوهمون ظهوره ، ملتمسين كل وسائل الإخفاء ، ولذلك كان حديثهم مشتملا على عدة تأكيدات ، فبالإضافة إلى أنهم جعلوا هذا الحديث فى مقدمة أحاديثهم ، وحتى بدون تمهيد له كأنهم يخشون كل لحظة تمضى أن ينكشف فيها أمرهم ، بالإضافة إلى ذلك حرصوا على أن يحملوا حديثهم كل ألوان التأكيد ، وليس أدل على ذلك من أن تشتمل ثلاث كلمات على ثلاثة تأكيدات هى « نشهد إنك لرسول الله » فنشهد قسم وهو تأكيد ، وإن واللام كلاهما تأكيد ، وكما هو معروف فى علم البلاغة من أن التأكيد لا يكون إلا فى مقام الإنكار أو توقع الإنكار ، كذلك

المنافقون ، لما كانوا يعلمون من أنفسهم إنهم كاذبون ، فيخيل إليهم أن كل مستمع سيرتاب بهم ، وأن الأمر الذى يخفونه أمر عظيم ، لذلك اندفعوا يحملون الكلام كل ما يمكن حمله من أنواع التأكيد . .

ثانيا : « اتخذوا أيمانهم جُنَّة » :

« فقد جعلوا من يمينهم السابقة ، ومن أيمانهم فى كل موقف يخشون فيه انكشاف نفاقهم سترا يسترون به حقيقة نفوسهم ودخائل قلوبهم ، وهذه الصفة تأكيد للصفة السابقة حيث إنها مترتبة عليها ترتب العام على الخاص ، أى أنهم أولا حلفوا وأكدوا أنهم مسلمون ، وليس هذا الحلف والتأكيد فذاً فى خلقهم وسلوكهم ، بل إن اتخاذ الأيمان وما يتبعها من تأكيد ساترا لنفاقهم إنما هو طبيعة دائمة ملازمة لهم .

وإذا نظرنا إلى اعتمادهم على الحلف والتأكيد من الناحية النفسية نراه يخفى وراءه بالإضافة إلى ما فى النقطة الأولى شيئاً آخر هو ضعف الثقة بالنفس ، فإن الشخص الواثق من نفسه لا يرى هناك ما يدعوه إلى التماس وسائل غير عادية ليحمل غيره على تصديقه ، وحتى مع تأزم الموقف ، فإن الواثق من نفسه يجد

عنده القدرة على الثبات والاستعداد لتحمل ما ينجلى عنه الموقف أياً كانت النتيجة ، ولا يفقد مع ذلك ثباته ، وهذا مثل لأحد مواقف الثقة بالنفس فيوسف عليه السلام نجده حين بلغ به الموقف غاية الأزمة والخطورة ، واتهمته سيدته أمام سيده بمحاولة العدوان على عرضها ، طالبة له أسوأ العقاب ، قائلة : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » نجد ثقة يوسف من نفسه تجعله ينفى عن نفسه التهمة فى أسلوب عادى يخلو من أى حلف أو تأكيد حين قال هذه الكلمة البسيطة : « هى راودتنى عن نفسى » ومع أن هذا الأسلوب مخالف للقواعد التى تعارف عليها علم البلاغة من حيث أن موقف الإنكار يقتضى التأكيد ، وموقف يوسف حينئذ محاط بكل أنواع الإنكار فكان المتوقع أن يحاول أو يؤكد براءته ، إلا أن مرعاة الاعتداد بالنفس والاستهانة بكل إنكار كأنه عدم ، يجعل هذا الأسلوب فى قمة البلاغة .

ثالثاً : « ذلك أنهم آمنوا ثم كفروا » .

وهذه الصفة سيقت مساق التعليل لما قبلها ، لأنها مبعث النفاق ، ونواته الأولى فى شخصياتهم ، كما سبق أن قلنا من أن النفاق يعتمد أولا على فقدان صاحبه لنزعة الإيمان الطبيعية فى التكوين

الإنسانى ، والذبذبة بين الإيمان والكفر ، هو فقدان الإيمان بكليهما ، لأن المؤمن بشىء لا يتحول عنه .

ومع أن معظم المفسرين اضطربوا فى فهم هذا المعنى اضطراباً بيناً ، واختلفوا فيه اختلافاً واضحاً ، وكان مبعث الاضطراب عندهم هو : متى ثبت الإيمان للمنافقين ؟ أى متى كان إيمانهم ؟ فى قول الآية الكريمة « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » ، أقول مع ذلك لا أرى فى الآية ما يدعو إلى الاضطراب والاختلاف ، فالآية لم تستهدف أن تثبت لهم إيماناً ولا كفراً ، وإنما استهدفت أن تثبت لهم مجرد الذبذبة وعدم الاستقرار على مبدأ ، أى استهدفت نفى نزعة الإيمان — من أصلها — عنهم ، فلا هم آمنوا بمعنى الإيمان ، ولا هم كفروا وعبدوا الأصنام بمعنى الكفر ، لأنهم كما قلنا لو آمنوا بشىء لم يتحولوا عنه ؛ ولأنهم — كما قلنا أيضاً — لو عبدوا الأصنام كإيمان وعقيدة لكانوا أحسن حالا من النفاق ، ولكنهم فى الواقع لم يؤمنوا ولم يكفروا ، أى لم يتخذوا أياً منهما عقيدة لهم فى دخيلة نفوسهم ، ولذلك نجد هذا المعنى مكرراً فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، مشيراً إلى أن المعنى المقصود يكمن وراء المعانى الحرفية للألفاظ ، فهذه الآية الكريمة

تقول : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا »[1] ثم الآية التالية لها مباشرة تبين من هم أصحاب هذه الأوصاف فتقول « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً »[2]، وحيث إن الآية الكريمة كررت الإيمان والكفر وذكرت تردد المنافقين بينهما أكثر من مرة بقولها : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا » فإنها لا تعنى إيماناً معيناً ولا كفراً معيناً ، وإنما تعنى فقدان نفوسهم لمجرد الاستعداد للإيمان بأى شىء أو الاعتقاد فى أى شىء يتصل بالروح والتدين ، على أن عدم تقييد القرآن الكريم بالمعانى السطحية الحرفية للألفاظ شىء غير نادر ولا هو مجهول للمفسرين ، كقوله تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وقوله تعالى « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فالمفسرون أنفسهم يقولون إن العدد فى الآيتين ونحوهما غير مقصود لذاته ، وإنما المقصود استنفاذ كل احتمال يتسع له المقام ، فكأنه قيل مهما استغفرت لهم فلن يغفر الله لهم ، بصرف النظر

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢) سورة النساء آية ٣٧ .

عن العدد ، وإنما ذكر هذا العدد بالذات لأنه قريب من المألوف في عدد مرات الاستغفار ، وكذلك في الآية الأخرى كأنه قيل في يوم يبلغ من الطول أقصى مايتصوره الإنسان ، وكذلك الأمر في قوله سبحانه « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » .

فإن قيل : فإن تجردهم من الإيمان صفة نفسية ، لا تناسب الصفات المذكورة في السورة ، فإن الصفات المذكورة مادية حسية ظاهرة ، وقد ذكرت للتعريف بالمنافقين وكشف النقاب عنهم ، أما التجرد من الإيمان والعقيدة فمعنى نفسي « خفي » ، لا يمكن كشفه ، وبالتالي لا يعرف المتصفون به ، وبالتالي أيضاً لا يفيد ذكره شيئاً بين الصفات التي ذكرت للتعريف بالمنافقين .

فأقول إن الآثار التي تترتب على هذا الوصف وهي عدم الثبات على عقيدة معينة آثار لازمة لهذه الصفة ، وهي آثار ظاهرة مكشوفة يسهل كشفها ، ولذلك تجاوزت السورة عن ذكر الصفة نفسها ، وتعمدت ذكر لوازمها الظاهرة ، ليستطيع المسلمون أن يضعوها في قائمة الأوصاف التي يكتشفون بها المنافقين .

رابعاً : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم » .

ولئن كان كثير من الرواة والمفسرين يقرنون هذا الوصف بعبد الله بن أبي بن سلول، إلا أن ذلك إنما هو لمجرد أن صفات عبد الله بن أبيّ توافق هذه الأوصاف، ولذلك نجدهم يتلافون هذا بقولهم: «وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة»[1]، لأن سورة «المنافقون» لم يقصد بها شخص معين، وإنما قصد بها أن تكون منظاراً يكشف عن المنافقين، هذا بالإضافة إلى أنه من المعلوم أن القرآن الكريم حتى وإن كان السبب في نزول بعض أحكامه حوادث فردية، إلا أن هذه الأحكام تأخذ بمجرد نسبتها إلى القرآن حكم العموم.

ولكن النفاق معنى نفسي، وهذان الوصفان حسيان ظاهران، فما العلاقة بينهما؟

وللإجابة عن ذلك نقول: إنه بصرف النظر عن الناحية الخاصة، من أن الذين يتوقع أن يرتادوا مجلس النبي بالذات من المنافقين إنما يكونون من وجوههم وقادتهم، لأن شعور المنافق بالخوف من انكشاف خبيئته، وشعوره بالعداء، يجعله لا يقدم على مواجهة شخصية النبي بالذات، بما لها من قوة ومهابة وجلال،

(١) تفسير الكشاف للزمخشري — سورة المنافقون.

إلا الخاصة من المنافقين ، بإنهم بما أوتوا من تفوق فى النفاق ، وقدرة على التنكر فى أحلك الظروف يستطيعون أن يجازفوا بهذه المواجهة ..

أقول مع صرف النظر عن ذلك ، لو نظرنا إلى هذا الوصف من الناحية النفسية نجده من أبلغ ما يوصف به المنافقون ، ومن أيسر ما يعرفون به أيضاً ، وذلك أنه من المعروف نفسياً أن الشخص الذى يشعر فى نفسه بشىء من النقص ، يحاول أن يعوضه فى سلوكه ، فيتخيل هذا الشخص أن نقصه سيحمل الناس على عدم تقديره واحترامه ، فيلتزم تصرفات يتخيل أيضاً أنها سترفع من شأنه ، وتحمل الناس على حسن رأيهم فيه ، فيتأنق فى ملبسه ، ويتأنق فى كلامه ، ويتعمد أن يتقدم الناس فى مشيه أو حديثه ، ويتخذ نحو ذلك فى كل سلوكه مع الناس وأمام الناس ، كأن يضع يده فى جيب سراويله (البنطلون) حين يمشى وما إلى ذلك ، ولذلك نجد المهن التى يعتمد أصحابها على رأى الناس فيهم ، وتتأثر أرضاعهم وأرزاقهم برأى الناس فيهم ، نجد أصحابها يشتهرون بالمبالغة فى أناقة الملبس كالممثلين ومحترفى قراءة القرآن الكريم وبالعكس نجد المعتدين بأنفسهم كالفلاسفة يشتهرون بإهمال

مظهرهم ، ولست أضرب هذا مثلا فى مقام النفاق ، وإنما هو استئناس بمعنى آخر ، هو أن شعور الشخص باحتياجه احتياجاً أساسياً إلى حسن رأى الناس فيه يجعله يلتمس كل سبيل إلى ذلك ، ومن هذا التأنق فى الملبس والحديث .

والمنافقون أحوج الناس إلى حسن رأى الناس فيهم ، لأن صلاتهم وأرزاقهم بل وأرواحهم مهددة إذا انكشف أمرهم وساء رأى الناس فيهم ، فهم إذن حريصون على حسن رأى الناس فيهم ، وسواء فى ذلك المسلمون والكافرون بالنسبة إليهم لأنهم حريصون على كسب الطرفين ، فليس غريباً أن يبذلوا قصارى جهدهم فى أن ينالوا رضا الناس عنهم وإعجابهم بهم ، وليس أقرب فيما يبذلونه، من أن يتأنقوا فى الملبس ما وسعهم التأنق ، وأن يتصنعوا فى الحديث ما وسعهم التصنع .

وقد يقال إن التعبير بأجسامهم دون ملابسهم ، يوحى بأن هذا الوصف أصيل وليس متكلفاً أى أن أجسامهم جميلة بطبعها ونجيب بأن الجسم وإن كان هو الأصل ، إلا أن الزينة بالملابس وغيرها جزء من الحكم عليه بالحسن أو القبح ، بدليل أننا كثيراً ما نرى جسما جميلا بملابسه ، فإذا تجرد من ملابسه لم نجد فيه

ما كنا نراه من جمال وكذلك العكس .

خامساً : « نهم خشب مسندة » :

ولما كانت الصفة السابقة وهي جمال الأجسام وحلاوة المنطق ملبسة لهم بغيرهم ، فلا شك أن هناك من يشاركهم في هذه الصفة إن لم يكن تكلفا كتكلفهم فقد يكون طبيعة وسليقة ، لذلك كان لابد أن يكون هناك مقياس يميزهم عن غيرهم ممن يشاركهم في تلك الصفة .

وذلك بتوجيه المسلمين إلى أنهم لا ينبغي أن يتخذوا من المظهر حكما على الأشخاص، بل ينبغي أن يكونوا أعمق وأدق في أحكامهم فكثيراً ما كانت المظاهر ثغرات يؤتى من قبلها الناس ، يكبرون الشخص أيما إكبار حينما يرون مظهره ، ثم يصغرونه أيما إصغار حين يلمسون مخبره ، كما حدث مع أبي حنيفة حينما كان يلقي درساً وقد مد رجله أمامه ، وإذا شيخ جسيم وسيم مهيب ، يدخل عليه ليحضر مجلسه ، فثنى أبو حنيفة رجله واعتدل في جلسته إجلالا للرجل ، واستمر في درسه عن حكم صلاة الفجر إذا طلعت الشمس أثناء الصلاة ، وإذا هـــذا الشيخ المهيب يسأل أبا حنيفة قائلا : وما الحكم إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ فقال أبو حنيفة كلمته

التي ذهبت مذهب الأمثال « آن لأبي حنيفة أن يمد رجله »

وكثيراً ما يضمر الناس للشخص كل الرضا والود حينما يستريحون إلى جمال شكله ووداعة مظهره وسحر حديثه وتلطفه ثم يضمرون له كل النفور حينما يلمسون خبثه وخداعه وحقده ، كما كان يحدث للمسلمين دائماً مع المنافقين .

فالمظهر إذن لا ينبغي أن يكون وحده مقياساً عند الرجل الحصيف ، وقد رأى عمر بن الخطاب ذات مرة شيخاً ضئيلا دميا قيل له إنه سيد قومه ، فعجب عمر ، ولكنه لم يتخذ من مظهره ، ولا من حديث الناس عنه حكما عليه ، وإنما أراد أن يخبر شخصيته وعقله ، فقال له يا هذا : لو حكمت بين عامر بن الطفيل وعلقمة ابن علاثة ، فأيهما كنت تفضل ؟ وكان عامر وعلقمة يتنازعان سيادة القبيلة، وقد هدأت الحرب بين قوميهما بعد ضراوة، فقال الرجل مجيباً : يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، يعني الحرب فقال عمر مكبراً له : بهذا سدت قومك . فعمر لم يصدر حكمه إلا بعد اختباره .

وإلى هذا النحو استهدفت الآية الكريمة، من حيث إنه لا ينبغي للمسلمين أن يخدعوا بمجرد المظهر ، فماذا يفعلون إذن مع أولئك

الذين يسعون إليهم متوددين يحملون كل سمات الطيبة والمظهر الوديع ؟ إذن ينبغى أن يعرضوهم للاختبار ، وحينئذ يعلمون أنهم « خشب مسندة » ، مجرد ألواح من الخشب ، وليست هذه الألواح فى موضع ينتفع بها فيه ، وإنما هى مسندة لا جدوى منها ، ولا نفع فيها ، أو مجرد أصنام جوفاء .

وكذلك كان يفعل النبي صلوات الله عليه مع المنافقين ، كانوا يأتونه فى أجسامهم المديدة المهيبة ، فيقول قائل المسلمين : ما أغنى هذه الأجسام فى القتال ، وما أصلحها للفروسية ، ثم يتحدث أصحاب هذه الأجسام عن حميتهم للاسلام ، وحرصهم على الدفاع عنه وفدائه بكل ما يملكون ، ويطلقون من ألسنتهم العبارات التى تثير الحمية والإعجاب فى نفوس المسلمين ، ويأتى دور الاختبار حين يحدثهم المسلمون بأنهم مقدمون على غزوة ، وبأنهم يستطيعون أن يطفئوا شوقهم إلى الدفاع عن الإسلام بالاشتراك فى هذه الغزوة ، وإذا نتيجة الاختبار تبدو فى اصفرار يعلو وجوههم ، ونظرات كنظر المغشى عليه من الموت يستجيرون بها إلى النبي من الاشتراك فى القتال والتضحيات ، وحديث ذليل مهين يستشفعون به إلى النبي أن يرحمهم من التضحية والفداء ، ويقولون

إن بيوتنا عورة » فأذن لنا فى التخلف عن الغزو لحرسها ، وقالوا « لا تنفروا فى الحر[١] » « وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين[٢] » « لو استطعنا لخرجنا معكم[٣] » إلى آخر ما تجود به أساليب الصغار والمهانة ، مما لا يتناسب مع مظهرهم ، فقد دخلوا بأجسام مديدة مهيبة ، وألسنة ذلقة فصيحة ، وخرجوا بأجسام مرتعشة مضطربة ، وألسنة متعثرة متخاذلة ، كما يقول العرب « تمخض الجمل فولد فأراً » ، وكانت النتيجة أن مظهرهم هذا كله يسفر عن مجرد « خشب مسندة » .

سادساً : « يحسبون كل صيحة عليهم » :

وهذا يصور مبلغ الخوف والفزع الذى يستولى على نفوسهم ويستحوذ على أفئدتهم ، وبالتالى يصور مبلغ شعورهم بقوة الإسلام ورهبتهم من هذه القوة ، ويدل أيضاً على أن قوة الإسلام العسكرية كانت قد بلغت حينئذ المرحلة المخيفة لأعدائها ، ولعل هناك علاقة بين كون هذه الصفة ذكرت فى آخر الصفات وبين

---

(١) سورة التوبة آية ٨٠

(٢) » » » ٨٥

(٣) » » » ٤٢

قوة المسلمين ، أعنى أن الفزع إنما بلغ بهم هذه الدرجة لأن قوة المسلمين فى المدينة بلغت مرحلة الإفزاع للأعداء .

ولكننا لا نستطيع أن نمر بهذه الصفة دون أن نتساءل : ولكن لماذا انفرد المنافقون بهذا النوع من الرعب دون غيرهم من أعداء المسلمين ؟ فقد كان هناك أعداء للمسلمين غير المنافقين ، كأهل الكتاب وخاصة اليهود وكالمشركين ، وقد ظل بعضهم يعادى المسلمين — حتى بعد أن بلغوا هذه القوة وأكبر منها — إلى آخر قطرة من دمه ، ومع ذلك لم يبلغ بهم الرعب والفزع هذه الدرجة .

والإجابة عن ذلك نقول : أننا حين نتعمق الأمر قليلا من الناحية النفسية التحليلية نجده يبدو أكثر وضوحا ، فالواقع أن الخوف يمكن أن ينظر إليه من زاويتين ، وذلك بأنه أحياناً يأتى من خارج الذات ، وأحياناً ينبع من النفس ، أما الحالة الأولى التى يأتى فيها من الخارج ، فحينما يتعرض الشخص لخطر خارجى ، بأن يتعرض لعدو أو لأى مصدر من مصادر الخطر كالتعرض لوحش أو لكارثة أو حادث من الحوادث ، والخوف فى هذه الأحوال طبعى ومألوف ، ولكنه مهما يبلغ فهو محتمل بحيث

لا يفقد الشخص السوي معه عادة أعصابه إلى درجة الفزع والانهيار حتى وإن حاول جهده التخلص والهرب من هذا الموقف ، بل في بعض هذه الأحيان يجد الشخص نفسه مدفوعا إلى مواجهة هذا الخطر مهما كانت نتيجته ، كالذين يدافعون عن مبادىء ومثل ، كالدفاع عن الدين أو النفس أو الوطن أو المال أو العقيدة ، ومن باب الدفاع عن العقيدة أولئك الذين يدافعون عن عقائد باطلة كالوثنية أو المذاهب الفاسدة ، لأنها باطلة في نظر غيرهم لا في نظرهم هم ، وفي هذا إجابة عن بعض السؤال ، وهو أننا نستطيع أن نعتبر أعداء الإسلام — غير المنافقين — مدافعين عن « وجهات نظر وعقائد » من دين أو كيان أو مجد شخصي — وإن كانت وجهات باطلة ، لأنهم هم لا يعتبرونها حينئذ باطلة .

وأما الحالة الثانية وهي التي ينبع فيها الخوف من النفس ، فهي الحال التي يشعر فيها الشخص « بالذنب والمطاردة » بأن يرتكب جريمة تستحق العقاب ، ثم يحاول التهرب من هذا العقاب ، فيشعر حينئذ بشعورين مرهقين للنفس ، هما الشعور بارتكاب الجريمة ، والشعور بأن هناك قوة تطارده لتوقع عليه العقاب .

وهذا النوع من الخوف هو أشد أنواع الخوف ، وأقساها على النفس ، وأكثرها إرهاقا للأعصاب ، ولو فرضنا أن هناك قاتلا هاربا من وجه القانون ، لكان هذا الشخص أتعس الناس وأكثرهم شقاء بوقوعه تحت وطأة هذين الشعورين الثقيلين ، ولو كان القائمون على تنفيذ القانون يعلمون ما يعانيه هذا الشخص ، ثم أرادوا به أشد ألوان العذاب لتركوه فى حاله هذه ، ولعلموا أنهم يرفقون به أيما رفق حينما يسعون به إلى العقاب ، ولذلك نجد معظم هؤلاء الهاربين لا يطيقون هذا العذاب فيسعون بأنفسهم إلى ماهو أرفق بهم وهو العقاب، وحتى القلة التى تحاول الاستمرار فى الهروب ، فإنما تحتمل ذلك إذا خف شعورها بالمطاردة بأن تشعر بأنها فى مأمن ، وبذلك تكون واقعة تحت شعور واحد هو الذنب ، أما اجتماع الشعورين ، فلا أظن أن فى الحياة ما هو أقسى على النفس منه ، لأن صاحبهما لا يمكن أن ينام كما ينام الناس ، ولا يمكن أن يهدأ كما يهدأ الناس ، ولا يمكن أن ينظر إلى الحياة كما ينظر إليها الناس ، أحلامه مفزعات ، ويقظته مخاوف ، يرى فى كل إنسان عدوا يريد أن يقبض عليه أو يرشد عنه ، ويرى فى كل شبح خطرا يكمن له ، ويسمع فى كل نظرة توجه إليه هاتفا يقول له

انقضوا على هذا المجرم، ويحس فى كل حركة أو همسة أو نبأة نذيراً بخطر يتحفز للانقضاض عليه .

والأفذاذ من رجال الشرطة الذين اشتهروا فى العالم بالنجاح فى مطاردة المجرمين، من أهم ما يعتمدون عليه هو ملاحظة الخصائص النفسية لهذا النوع من المجرمين وما تمليه هذه الخصائص من سلوك وانفعالات .

وحين نعرض المنافقين فى هـــذا المجال، نجد أن هذا النوع أقرب ما يكون إلى الإنطباق عليهم ، فهم يشعرون بارتكاب الجريمة ، بل جرائم شتى من الخيانة والغدر والحقد والكذب وما إلى ذلك من صفاتهم ، وهم يشعرون بالمطاردة، لأنهم يعيشون بين ظهرانى المسلمين ، وفى مركز قوتهم بالمدينة ، وانكشاف أمر أحدهم يعرضه لأسوأ النتائج بالنســبة إليه ، فالمنافقون إذن من النوع الثـانى ، وهو الواقع تحت شعورين ، الشعور بالجريمة ، والشعور بالمطاردة، ولذلك، كانوا دون غيرهم من أعداء المسلمين هم الذين تميزوا بأعراض هذا النوع من انهيار الأعصاب ، وسيطرة الفزع إلى درجة الخوف الوهمى من أشياء لا وجود لها ، ولذلك أيضاً خصهم القرآن الكريم بنسبة هذه الأعراض إليهم فأى وصف

لسيطرة الخوف إلى درجة الأوهام والوساوس أبلغ من قوله : « يحسبون كل صيحة عليهم » وأى تصوير لانهيار الأعصاب أبلغ من قوله « ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » ، وقد أصبحت هذه المعانى مورداً يستقى منه الشعراء والأدباء ، وما أدرى مجالا أوضح لقوله تعالى فى المنافقين « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا »(١) أقول لا أرى مجالا أكثر توضيحاً لهذا المعنى من هذا المجال ، فإذا أردنا أن نتصور كيف أن المنافقين يعذبون بأموالهم وأولادهم فى الدنيا ، فلنتصور مجرماً طريد العدالة ، وهذا المجرم يملك مالا ويرعى أولاداً ، فلو استطعنا أن نتصور ما يعانيه هذا المجرم من خوف على ماله ، أين يذهب بعده ؟ ومن يديره ؟ وكيف يتركه ؟ وعلى أولاده ، من يرعاهم ؟ وكيف يعيشون بعده ؟ وكيف يهون عليه فراقهم ؟ وما إلى ذلك ، لو استطعنا أن نتصور ما يعانيه هذا المجرم ، لاستطعنا أن نتصور كيف أن المنافقين يعذبون بأموالهم وأولادهم فى الدنيا .

---

(١) سورة التوبة آية ٨٤

وبهذا نجيب عن السؤال السابق ، وهو : لماذا انفرد المنافقون بهذا الرعب دون أعداء المسلمين ؟ لأنهم من النوع الثاني الذى يسيطر عليه أشد أنواع الخوف ، لأنه خوف مركب ، أما الأعداء الآخرون فهم يعانون خوفاً بسيطا من حيث التكوين بصرف النظر عن حدته مهما تبلغ لأنه يتمثل فى الشعور بخطر خارجى ، وكان هذا الخطر يتمثل فى قوة الإسلام .

(ب) المنافقون فى مواجهة الكفر :

والمنافقون كما قدمنا أعداء لكل القوى المتدينة لأنهم أعداء التدين ، إلا أن عداءهم للإسلام أقوى لأنه أكثر معارضة لآمالهم ومطامعهم ، حيث لم يروا فيه — بالنسبة لهم — إلا مجرد تضحيات . أما أصحاب الأديان الأخرى ، من يهود ووثنيين فإن مصاحبتهم أخف ضرراً وأيسر عبثاً ، حيث لا تضحية فيها ، أما صحبة المسلمين فإنها — بالنسبة إليهم — بلاء ، زكاة وصدقات ونفقات وشىء آخر بشع رهيب يسمونه الجهاد فى سبيل الله وأشياء أخرى يقولون ما أغنانا عنها ، وبهذه النظرة يرى المنافقون كل القوى الأخرى غير المسلمة كأنهم أصدقاء بالنسبة للمسلمين . ولو من باب « بعض الشر أهون من بعض » .

ومهما يكن من شيء ، فإن السلوك الطبيعي للمنافقين أن يلقوا كل فريق بما يحب ، وأن يخفوا لكل فريق ما يبغض ، لذلك نراهم حينما يواجهون الفريق الآخر الذي يعادي المسلمين ، يظهرون سلوكا مناقضاً لسلوكهم حينما كانوا يواجهون قوة الإسلام فنراهم كما يلي :

أولا : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » ، فهاهم أولاء الذين كانوا منذ حين أمام النبي صلوات الله عليه يقسمون ويؤكدون أنه رسول الله ، خاضعين خانعين نراهم الآن حينما بعدوا عنه ، وأمنوا سلطانه ، يستهينون باستغفاره ، ويستهينون بشخصه ، بل ويظهرون كبرياءهم وتعاليهم على شخصه ورسالته ، وبالإضافة إلى أن هذا السلوك يمثل ما في نفوسهم ، لأنهم غير مؤمنين بالنبي فعلا ، إلا أن فيه إرضاء للفريق الآخر وتودداً إليه ، وكسباً له ، وهذا أهم ما يحرص عليه المنافقون .

ثانيا : « يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » .

فهم يعلمون أن القوة الأساسية التي اعتمد عليها الإسلام كانت

من الفقراء ، وأن الفقير بطبيعته يعتمد على الدون ، فأنجح طريق للقضاء على كيان الإسلام بوصفه قوة وجماعة أن يحارب اقتصاديا، وأن يعزل أصحابه فى حصار عنيف ، وبذلك يكونون قد أدركوا أخطر سلاح تحارب به الأمم والشعوب، وإن كان الإسلام باعتباره عقيدة قد أثبت أنه أقوى من هذا السلاح ، كما حدث فى انتصار الإسلام على مقاطعة قريش لبنى هاشم . ومع بغضهم أيضا للإسلام، وتمنيهم أن تبذل كل الجهود، وتتضافر كل الأفكار للقضاء عليه ، ومع حرصهم على ألا يدخروا فى هذا السبيل وسعا ، ولو أن يستعينوا بعدو آخر للقضاء على هذا العدو المخيف ، إلا أنهم يجدون فى هذا الحديث وهذا الحماس الذى يظهرونه ضد الإسلام كسبا لود الفريق الآخر الذى يرى فيهم عونا على المسلمين ، ولو من باب « عدو العدو صديق » .

ثالثا : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

وكما كنا نرى خوفهم يشتد ، وضعفهم يبرز كلما قربوا من قوة الإسلام ، نراهم أيضا يستردون ثباتهم وقوتهم كلما بعدوا عن هذه القوة ، حتى إذا بلغوا مكاناً آمناً رأيناهم وكأن حالهم كله تبدل ،

فإذا الذل الذليل ينقلب عزة ومباهاة ، وإذا الخور والانهيار يتحول إلى عزم وإصرار ، وها هم أولاء حينما وجدوا أنفسهم بعيداً عن المدينة — مركز قوة الاسلام — يقولون مستأسدين فيما يشبه العزم والاصرار « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » يعنون بالأعز فريقهم هم ، وبالأذل فريق المسلمين ، هذا بصرف النظر عما يساق في سبب النزول من أن المتحدث بذلك هو عبد الله بن أبي ، يعني بالأعز نفسه ، و بالأذل رسول الله صلوات الله عليه ، فإننا نعتقد أن القرآن الكريم أجل من أن يشغل بالأفراد — خاصة إذا كانوا من الممقوتين — إلا إذا كان في الحديث عن الأفراد عبرة عامة ، أو هدف تشريعي ، وفي كلا الحالين — كما هو في السورة — نجد المعنى عاما ، وليس خاصاً ، على أن كلا المعنيين يؤدى إلى النتيجة التي يؤدي إليها الآخر ، فالرسول زعيم المسلمين ، وعبد الله بن أبي زعيم المنافقين ، وبخروج أحدهما خروج لأتباعه من حيث تحطم كيانهم وتداعي قوتهم .

وهذه الثورة التي تبدو من خلال كلامهم ، لا تمثل شجاعة منهم ولا حمية ، وإنما تمثل حقدهم وبغضهم للمسلمين ، والأماني التي تراود نفوسهم ، فهم يتمنون أن يؤتوا من القوة والجرأة ،

مايحطمون به قوة المسلمين ، ولكنها أمانىُّ تراودهم حينا يأمنون جانب المسلمين ، فإذا اصطدموا بهم لا يجدون فى نفوسهم عزة ولا ثباتاً ، وإنما يجدون فيها رعباً يأخذ عليهم نفوسهم من جميع أقطارها .

* * *

فالمنافقون إذن - دون غيرهم - لا يتصرفون حسب مبدأ معين يملى عليهم تصرفاتهم ، لأنهم لا مبدأ لهم ، ولا يلبسون ثوباً معيناً يحدد كيانهم وشخصيتهم وخلقهم ، لأنهم لا شىء لهم من ذلك ، وإنما يلبسون لكل حالة لبوسها ، اللهم إلا إذا أصبحت تسمية التلون خلقاً ، أما غيرهم من سائر الطوائف وأعداء المسلمين ، فقد كان لكل منهم سلوك ثابت ، ولون معين يراه به المسلمون ، فاليهود - على عدائهم للمسلمين - لهم سلوك معين إزاء المسلمين ، وخلق ثابت بصرف النظر عن قبحه أو حسنه ، وكذلك المشركون وسائر أعداء المسلمين .

أما المنافقون فقد كانوا مصدر حيرة للمسلمين ، حتى ألقى عليهم القرآن الكريم ضوءه ، معلماً المسلمين ألا ينظروا إلى المنافقين من زاوية واحدة ، لأنهم دون غيرهم ذوو لونين ، بل ألوان شتى

إذا اقتضت الظروف ، وقد كان الضوء الذى ألقاه القرآن الكريم على المنافقين أوسع انتشاراً فى سورة التوبة من حيث إنها تحدثت عن نواح كثيرة من حياة المنافقين وأفكارهم وشعورهم ، ولكن النور كان أشد تركيزاً وتحديداً فى سورة « المنافقون » حيث إنها لم تكتف بالحديث عن سلوكهم وأخلاقهم وشعورهم نحو المسلمين . بل تعدت ذلك إلى وصف هيئتهم ، وطريقة حديثهم ، وكل ما سبق من صفاتهم الخاصة بهم والمميزة لهم .

موقف المسلمين من المنافقين

مما سبق نرى أن طبيعة المنافقين أسوأ الطبائع البشرية ، لأنها بحكم استعدادها الفطرى شاذة عن الطبيعة البشرية السوية ، وقد نظروا إلى الإسلام من عدة زوايا ، كلها دفعتهم إلى عدائه دفعاً ، نظروا إليه كدين ومبدأ ، وهم أعداء الأديان والمبادىء ، ونظروا إليه على أنه عقبة كئود فى سبيل آمالهم ومنافعهم الشخصية ، ونظروا إليه من حيث الأضرار النفعية التى ألحقها بهم والتى ينتظرهم بها ، ونظروا إلى أهله نظرة الحاسد الذى يرى لغيره نعمة من قوة أو جاه أو سلطان كان يتمنى أن يراه لنفسه ، وقد كانت كل زاوية ينظرون منها إلى المسلمين تملأ قلوبهم عليهم عداء وحقداً ، فماذا يكون موقف المسلمين منهم ؟

لا شك أن النفاق شر ، والإسلام يحارب كل الشر ، ولكن هناك خطورة من المنافقين على كيان المسلمين ، كان طبيعياً أن تلفت الصورة نظر المسلمين إليها - هى أنه بينما المسلمون يعملون فى النور جاهدين لبناء صرح الإسلام ، إذا بالمنافقون فى دجى الليل يحفرون سراديب وجحوراً تحت هذا الصرح ، ثم ينهالون فى

أساسه وقواعده بمعاول قوية خطيرة ، وبهذا لو تركوا وشأنهم يجعلون صرح الإسلام بكل الجهود التي بذلت في تشييده مهدداً بالانهيار في أي لحظة ، وكانت معاولهم خطيرة حقاً ، لأنها تتمثل في ألوان شتى مما يسمونه الحرب الباردة ، وأخطر ما في حربهم للإسلام سهولة الاستحواذ على عقول السذج من عامة المسلمين ، ثم نشر الفتنة بألوانها بينهم ، فقد يستطيع شخص واحد أن يفسد الألوف من هؤلاء السذج ، كما استطاع مسيلمة أن يفسد عشرات الألوف من أهل اليمامة في عقيدتهم ، وكما استطاع عبد الله بن سبأ أن يفسد مئات الألوف من اتحاد الأمة الإسلامية ، بل استطاع أن يصدع كيان الأمة الاسلامية كلها ، حين استطاع أن يثلم في صرح الاسلام هذه الثلمة الخطيرة ، وهي مقتل عثمان وما استتبعه من أحداث .

ولهذه الخطورة في حرب المنافقين للإسلام ، قصرت السورة العداء للمسلمين عليهم ، بهذا التعبير البليغ في القصر « هم العدو » أي هم العدو البالغ العداء لا غيرهم .

وقد كانت هذه لمحة من اللمحات الغيبية في القرآن الكريم ، فإن الاسلام قد صرع أعداءه فريقاً إثر فريق ، وطائفة بعد طائفة ،

بل استطاع أن يضمهم فى ردائه ويجعل منهم أصدقاء أوفياء ، وأبناء مخلصين ، ما عدا المنافقين ، فإنهم وحدهم ظلوا كما هم أعداء للإسلام ، ولم يؤت الإسلام من ثغرة ، كما أتى من قبلهم هم ، حين فتحوا فى الإسـلام أبواباً تدفقت منها الفتن كما يتدفق السيل المتحــدر .

ونستطيع أن نلخص موقف المسلمين من المنافقين كما حددته السورة فيما يلى :

أولا : بينت لهم السورة أن المنافقين أشد أعدائهم خطورة عليهم ، وأحرص أعدائهم على التشبث بهذا العداء فتقول فى إيجاز بليغ « هم العدو » بأسلوب الحصر ، على سبيل المبالغة ، أى كأنهم لا أعداء للإسلام غيرهم .

ثانيا : عاونت السورة المسلمين على إفساد الحرب التى يشنها المنافقون على المسلمين من الناحية النفسية ، فأهم ما يعمد إليه المنافقون — وينجحون فيه — هو الاستحواذ على عقول السذج من عامة المسلمين — وما أكثرهم — فينشرون بينهم ألوانا خبيثة من الفتن ، أحياناً بالتشكيك فى العقيدة ، كما كان يقول عبد الله ابن سبأ للدهماء من المسلمين ، عجبت لمن يقول برجعة عيسى

ولا يقول برجعة محمد ، أترون عيسى أفضل من محمد ؟ وهكذا ، وأحيانا بتمزيق الشمل كما فعل أيضا فى فتنة عثمان وما وليها .

ولكن السورة أفسدت عليهم كل ما كانوا يثيرونه بين المسلمين حينذاك ، ولذلك نرى السورة تقرن كل فتنة يثيرونها بما يفسد هذه الفتنة ويرد المسلمين إلى جادة الصواب ، فالمنافقون يحلفون ويؤكدون للرسول أنه رسول الله ، « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » ومعنى حلفهم وتأكيدهم أن رسالته موضع شك أو إنكار لأن الحلف والتأكيد لا يأتى إلا فى مقام الشك والإنكار ، لذلك تقطع السورة عليهم هذه الغاية ، وتنزع من نفوس الدهماء كل شبهة فتقرن حديثهم هذا بقوله تعالى « والله يعلم إنك لرسوله » .

والمنافقون جعلوا من الحلف دائماً حجابا يستترون خلفه « اتخذوا أيمانهم جنة » ، وحتى لا يتأثر بعض الدهماء بنجاح هذه الطريقة فى نجاة صاحبها من المآزق ، وحتى لا يقلدهم غيرهم ممن يخدعون ويسرعون فى التقليد ، أسرعت السورة فقرنت هذه الصفة بالنتيجة السيئة التى جعلتهم يؤولون إليها وهى « فصدوا عن سبيل الله » ، وحينما يعلم الناس أن اتخاذ الأيمان جنة ، والاعتماد

على الحلف فى المآزق يؤدى إلى هذه النتيجة الخطيرة، لا شك ينفرون منها بدل أن يقلدوها .

والمنافقون من صفاتهم التلون ، الذى عبرت عنه السورة بقولها « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » وحتى لا يرى بعض البسطاء فى ذلك مهارة وحنقا ، كما يسميه كثير من الناس اليوم ، عمدت السورة إلى إبراز النتيجة التى يؤدى إليها هذا اللون من الخلق وهى « فطبع على قلوبهم » وهى نتيجة فى غاية السوء ، فإن من مستلزمات الطبع على القلب فقدان الشعور وموت الضمير ، وإبراز هذه النتيجة يمنع تغلغل أى أثر لهذه الصفة ، فقد جعلتها السورة موصوفة بهذه النتيجة القبيحة .

والمنافقون يعتمدون فى تغطية الشعور بالنقص ، ومحو الشك الذى يحيط بهم وبسلوكهم على تكلف المظهر الحسن والكلام المعسول « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم » . وإذا كان خاصة الناس ينخدعون بهذا المظهر فأولى أن ينخدع به عامتهم ، لذلك قطعت السورة عليهم هذه الطريق ، ومنعت تأثير هذا المظهر فى النفوس بهذا التشبيه المنفر وهو « كأنهم خشب مسندة » ومهما يكن من مظهرهم بعد ذلك فسيقترن به هذا التشبيه ،

الذى يفسد عليهم كل ما تكلفوه من مظهر ، فما إن يراهم راء حتى يتبادر إلى ذهنه هذا التشبيه .

والمنافقون حين قيل لهم « تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » ، وقد قرنت السورة هذا السلوك بأفظع ما يبلى به امرؤ فى دينه ، وهو فقدان الأمل فى المغفرة له فتقول « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » ولا شك أن المنافقين بدل أن يؤملوا إضعاف هيبة الرسول بلى رءوسهم وصدورهم واستكبارهم عن ذكره ، سيجدون أن هذا التصرف وبال عليهم فإن كل من يرى هذا التصرف من المسلمين ستتبادر إلى ذهنه الآية الثانية التى ذكرت بعد الأولى على وجه يشبه النتيجة والجزاء .

والمنافقون عمدوا إلى الحرب الاقتصادية والنفسية بين المسلمين فقالوا « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ويظلون ينشرون الدعايات عما يعانيه المسلمون ، ويعملون على حربهم من هذه الوجهة ، يبغون من ذلك كله الحرب النفسية ، ولكن السورة تقطع عليهم الطريق بهذه العبارة التى تملأ النفوس ثقة وأمناً

واطمئناناً « ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » .

والمنافقون يتشدقون — فى حالة الأمن — بعزتهم ، بل يتوعدون الرسول والمسلمين فيقولون « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » يبغون بذلك أن يلقوا شيئا من خوف فى قلوب بعض المسلمين ، وشيئا من خوف فى قلوب الذين يريدون أن يدخلوا فى الإسلام ، فتكون النتيجة أن يحجموا عن الدخول ، ولكن السورة تقطع عليهم الطريق ، وتخيب آمالهم ، حين تملأ نفوس المؤمنين ثباتا وشعوراً بالعزة فى هذا الأسلوب البليغ « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

ثالثا : ولما كان عداء المنافقين للمسلمين من طراز غير مألوف لهم ، لذلك دعت السورة المسلمين إلى أن يسلكوا فى مواجهة هذا العداء سلوكا غير عادى أيضا ، سلوكا يتميز بالمهارة والتفكير والدقة . تحدده السورة فى هذا الإيجاز الدقيق وهو « فاحذرهم » ، وهذا الحذر ليس من السهل الميسور ، إنه يتطلب مهارة أى مهارة فى تحديد المنافقين ومعرفتهم أولا ، ثم مهارة أى مهارة فى تتبع أعمالهم ومؤامراتهم والكشف عنها أولا بأول ،

ثم مهارة أى مهارة أيضاً فى الرد عليهم وإفساد خططهم وإحباط أعمالهم .

لذلك حينما نقارن بين موقف القرآن من مواجهة المنافقين وبين موقفه من مواجهة غيرهم من أعداء المسلمين نرى هناك حساسية عجيبة ، فبينما يدعو القرآن المسلين مثلا إلى مواجهة الشرك بكل ما فى الطاقة البشرية من قوة وشدة من مثل « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق» نجده بالنسبة إلى المنافقين لا يعتمد على لهجة القوة بقدر ما يعتمد على استعمال الذكاء والمهارة فى كشف شخصياتهم وأساليبهم والرد عليها ، من مثل «فاحذرهم» « ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » [1] « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » [2] وبقية الترجيهات وخاصة توجيهات سورة المنافقون .

وأما مجابهتهم بالقتال فقلما دعا إليها القرآن الكريم كما فى سورة التوبة [3] ، ولذلك لو تأملنا فى قوله تعالى فى هذه السورة

---

(١) سورة التوبة آية ٥٤ .

(٢) « « « ٤٣ .

(٣) « « « ٧٢ .

« فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » لوجدنا إنه إنما يدعو المسلمين إلى الحذر . أما القتال بالنسبة للمنافقين بالذات فقد تكفل به الله سبحانه بشتى أنواع الانتقام والجزاء ، وليس الحذر الذى وجهت إليه السورة أمراً ميسوراً ، فإنه يقتضى من الجهد واليقظة مالا يقل عن جهد السيف إن لم يزد عنه ، وهو ما نرى الدول اليوم تنفق عليه الجهود والأموال الطائلة بل تركز عليه معظم جهودها فى الكفاح ضد الأعداء من الداخل ومن الخارج على السواء .

ويعلل النبى صلوات الله عليه وسلم أهم نقطة فى هذه الحساسية من التفريق بين المنافقين وغيرهم فيقول حينما استأذنه عمر بن الخطاب فى أن يقتل عبدالله بن أبى حينما انكشف نفاقه « فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ » فما دامت الحرب بين المسلمين والمنافقين حرب مؤامرات ودعايات ، فليس إذن من مصلحة المسلمين أن يعلنوا عليهم حرب السيف ، حتى لا يستغل المنافقون ذلك فى الدعاية لمصلحتهم ضد المسلمين ، فالمفروض أنهم — كما يزعمون وفى نظر عامة الناس — مسلمون .

رابعا : ومن ناحية موقف الإسلام - بوصفه دعوة - من

المنافقين ، نجد أن القرآن بينما يحفز المسلمين إلى توجيه الدعوة وجذب الناس إلى الإسلام ، وعدم اليأس من دخول أعدائهم فى الإسلام مهما بلغت عداوتهم ، نجده بالنسبة للمنافقين لا يتحمس فى دعوتهم إلى الإسلام ، وذلك لأنهم غير صالحين بطبيعتهم للتدين كما قلنا ، فالجهد فى دعوتهم إلى الدين غير مقرون بالأمل .

بل نجد حديث القرآن عنهم يوحى بفقدان الأمل فى شفاء القلوب التى استحكم فيها النفاق ، ففى سورة المنافقون « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » وفى هذه الآية نجد ثلاثة معان تحمل إصرارا شديدا على عدم المغفرة لهم أى عدم الأمل فى صلاحهم ، أولها أن القرآن الكريم لم يصرح قط بأن عملا من أعمال الرسول مردود عند الله إلا استغفاره للمنافقين ، وقد أكد هذا المعنى بذكره أكثر من مرة ، فى سورة المنافقون ، وفى سورة التوبة ، وثانيها التصريح بهذا المعنى الحازم « لن يغفر الله لهم » ، وثالثها اختتام الآية فى مقام التعليل لعدم المغفرة لهم بتعبير « إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » ووصفهم بالفسق بالذات يفيد انفصالهم عن المسلمين ، وانقطاع كل الروابط بينهم وبين المسلمين ، فمادة الفسق

فى اللغة تدور حول الخروج والانفصال ، ومنه فسوق الرطبة والبيضة أى خروجها عن غيرها وإغفال متعلق الفاسقين حيث لم يقل الفاسقين عن كذا يوسع عليهم دائرة الخروج والانفصال ، فيحتمل خروجهم عن دائرة الإسلام وعن دائرة المتدينين قاطبة وعن الطبيعة البشرية كلها . والتعبير بلفظ « يهدى » ينفى ما قد يحتمل من أن الآية تعنى من مات منهم على النفاق ، فإن الهداية تكون للأحياء لا للموتى ، وإنما يكون الاحتمال مقبولا لو كان التعبير مثلا إن الله لا يغفر للقوم الفاسقين .

وهذا الإصرار نحو المنافقين بالذات موجود فى آيات أخرى غير سورة المنافقون ، فى سورة التوبة « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر لهم » وفيها « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، ولننظر إلى هذا الإصرار الشديد غاية الشدة فى تحاشيهم ، وفى عدم الأمل فى صلاحهم إلى الأبد « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ، ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

وقد يقال إن القرآن الكريم مناهم بقبول التوبة فى قوله « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما »(١) فنقول إن باب التوبة لا يمكن إلا أن يكون مفتوحا دائماً لكل راغب فى التوبة ، والأديان إنما جاءت لتدعو الناس ملحة فى الدعوة إلى مبادئها ، لا تفرق بين إنسان وإنسان فى قبولها إياه ، ولا تفاضل بين مؤمن ومؤمن بمبادئها طالما تساووا فى الإيمان بها.

ولكننا حينما نقول إن الأمل فى صلاح المنافقين وإيمانهم مفقود ليس معناه أن باب التوبة مغلق دونهم ، بل معناه أنهم هم الذين لا يدخلون هذا الباب ، لعدم صلاحيتهم أصلا للدخول فيه ، فكأن القرآن الكريم يترك لهم باب التوبة كغيرهم مفتوحا ، ولكنه يخبرنا بما يعلم من خبايا نفوسهم ونتيجة حالهم ، فيقول لنا إن هؤلاء — مع كون باب التوبة مفتوحا أمامهم — لن يدخلوا فى التائبين ، لأن طبيعتهم لا تهيئهم للتوبة ، ولذلك لو لاحظنا هذه الآية التى تحدثت عن توبتهم لوجدنا لها طابعاً غير طابع كل الآيات

(١) سورة النساء آيتى ١٤٤ ، ١٤٥

التي ذكرت فيها التوبة ، فالمألوف في آيات التوبة أنها تصوغ التوبة في مطلب يسير يسهل على التائبين من مثل « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم »[1] ومثل « فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما »[2] ومثل « ثم تاب من بعده وأصلح »[3] ونحو ذلك ، فكل ما تتطلبه هذه الآيات ونحوها من التائبين مجرد التوبة الصادقة ، والاقلاع عما اقتضى هذه التوبة ، أما توبة المنافقين فلكون نفوسهم وطبيعتهم وأعمالهم غير سائر التائبين ، لذلك نجدها مقيدة بقيود عنيفة عميقة متوالية هي « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » فكأن التوبة مع هذه القيود — بالنسبة للمنافقين بالذات — تعليق على نوع من المحال ، وخاصة القيد الأخير وهو « أخلصوا دينهم لله » فإن الإخلاص ، وإخلاص الدين بالذات مفقود بالطبيعة بالنسبة للمنافقين .

---

١ — سورة آل عمران آية ٨٨
٢ — « النساء « ١٥
٣ — « الأنعام « ٥٣

وأكثر من هذا ، لو استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى التوبة ، فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أنهم لن يصلوا أيضاً إلى مرتبة الإيمان ، لأن الإيمان يحتاج إلى استعداد طبعى ، والمنافقون ليسوا كذلك ، ولذلك لا تقول الآية إنهم بعد التوبة سيكونون مؤمنين ، وإنما تقول « فأولئك مع المؤمنين » مجرد معية وهذا ما لم يتحدث به القرآن عن كفر قط غير النفاق .

الألفاظ الموحية

كون القرآن الكريم معجزاً ، وكونه تاجاً على قمة الأدب والبلاغة العربية ، أمور ليست موضع خلاف بين أعداء القرآن فضلا عن أنصاره ، وهذه الدرجة من البلاغة فى القرآن الكريم مهما تحدث عنها العلماء فإنما يتحدثون بصفة عامة ، لا يملكون معها إبراز هذا المعنى إبرازاً كاملا ، فمثلهم كمثل الناظر إلى الشمس يبهره ضوؤها ، فلا يستطيع أن يثبت ملامحها أو تفاصيلها وإنما يكتفى بقوله ، ما أسطع هذا الضوء وأبهره .

وهذا من نواحى الإعجاز فى القرآن الكريم فإنه رغم كونه ظل نحو أربعة عشر قرناً وهو موضع للتأمل والبحث إلا أنه لم يزل يبهر الناظرين إليه ، ويعلمهم أنه سيظل مورداً فياضاً لا ينضب معينه ، بل يعلمهم أن البشرية كلما نمت فى عقليتها وثقافتها كانت أقرب إدراكا لإعجازه ، وإكباراً لشأنه .

ولا شك أن لكل كلمة معناها الذى تدل عليه ، وقد بلغت دلالات ألفاظ القرآن الكريم غاية ما يتخيل من مقومات البلاغة والذوق الأدبى .

ولكننا زيادة على ذلك نجد فيه ألفاظاً لها دلالات خاصة فوق معانيها الأصلية ، وهذه الدلالات الخاصة التى توحى بها هذه الألفاظ ، لا يمكن أن تحد بحدود بلاغية أو قواعد أدبية ، بحيث يمكن ضبطها أو النسج على منوالها ، لأنها من مراحل الإعجاز الذى تمتلىء النفس إكباراً له دون أن تستطيع تحديده وتمييزه تحديداً دقيقاً ، فضلا عن تقليده ، وهذه الألفاظ التى سنتحدث عنها ، لا نزعم أننا نتحدث عنها حديث الدقة العلمية التى تحديها القواعد والقوانين ، بل لا نزعم أننا نستطيع التعبير عن كل ما نحسه فيها من روعة وجمال ، وإنما نكتفى بتوجيه الأنظار نحو بعضها فنقول : من هذه الألفاظ التى توحى فوق معانيها الأصلية بمعان خاصة ذات حساسية بالغة فى الربط بين معناها الخاص وبين السياق العام أو الموضوع التى هى بصدده .

<u>أولا</u> : « جاءك » من قوله تعالى « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » فلو حاولنا أن نتذوق كلمة « جاءك » لوجدنا أن عدة ألفاظ وتعبيرات يمكن أن تؤدى المعنى العام لكلمة « جاءك » ولكن شيئاً منها لا يستطيع أن يؤدى هذا الذوق

الخاص الذى يؤديه كل من لفظى طه والكاف ، وما يتضمنانه من أن المنافقين إنما يبدو نفاقهم وضعفهم على أشده إذا كانوا فى الوضع الخاص الذى تفيده كلمة جاءك ، من اضطرارهم إلى المجىء والسعى إلى الرسول ، وكون وجودهم أمام شخصه عليه الصلاة والسلام باعتباره رمزاً للقوة التى يخشونها .

ثانياً : « جُنَّةً » من قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنة » ولفظ جنة وإن كان يطلق على كل ساتر . إلا أن استعماله غلب على الدرع التى يلبسها المقاتل لتقيه طعنات العدو .

وكثير أيضاً من الألفاظ يؤدى المعنى العام وهو الستر ، ولكن لاشىء مما نعرفه يؤدى هذا الربط الدقيق الجميل بين حال المنافقين وموقفهم من المسلمين وبين اختيار لفظ الجنة بمعنى الدرع ، فكأن اختيار لفظ الجنة بالذات يوحى بأن المنافقين فيما بينهم وبين أنفسهم يعتبرون أنفسهم فى حالة حرب مع المسلمين ، وهذه الوسائل التى يسلكونها يعتبرونها دروعاً فى هذه الحرب ، تقيهم بأس المسلمين .

ثالثاً : « لووا » من قوله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم » .

فكثير أيضاً من الألفاظ والعبارات يمكن أن يؤدى المعنى لهذا اللفظ وهو رفضهم الاستجابة لهذه الدعوة وإعراضهم عنها ، ولكن لفظ « لووا » بالذات يؤدى معنى خاصاً فى الربط بين مدلوله وبين السياق العام وهو خلق المنافقين . فلما كان خلق المنافقين يتميز بالالتواء ، لذلك كان أنسب لفظ لهذا المقام هو « لووا رءوسهم » .

رابعاً : « الخاسرون » من قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

فقد كان أيضاً كثير من الألفاظ يمكن أن يؤدى المعنى العام وهو ضلال الذين يبيعون ذكر الله بمتاع الحياة الدنيا أياً كان هذا المتاع ، ولكن لفظ « الخاسرون » فى سياق الحديث عن المنافقين يؤدى معنى فى غاية الدقة . فالآية تتضمن نهى المؤمنين عن اشتغالهم عن ذكر الله بمتاع الحياة ، ومفهوم ذلك (فى مقام الحديث عن المنافقين) أن هذا خلق المنافقين فلا ينبغى للمؤمنين أن يسلكوا سلوكهم .

وهنا تبرز دقة لفظ « الخاسرون » فهو يوحي بأن المنافقين ينظرون إلى كل شيء حتى الدين نظرة نفعية تجارية ، ويقيسون كل ما يعرض لهم بمقياس الربح والخسارة المألوف فى التجارة ، وهم يظنون أن فى سلوكهم الذى ارتضوه ربحاً لهم ، ولكن السورة تبين لهم الحقيقة ، وتتحدث إليهم بلغتهم قائلة إنكم أنتم « الخاسرون » .

خامساً : « خبير » من قوله تعالى فى آخر السورة « والله خبير بما تعملون » .

فهذا اللفظ وكذلك الجملة كلها وهى « والله خبير بما تعملون » هناك ألفاظ وعبارات كثيرة تؤدى المعنى العام لها أو الغرض العام منها ، ولكن الدقة الخاصة فى مراعاة أن السورة كلها سيقت للحديث عن المنافقين ، وأن حياة المنافقين كلها وأعمالهم تعتمد على التخفى والتستر كل ذلك جعل لفظ خبير فى ذاته وفى وضعه من جملة « والله خبير بما تعملون » يؤدى معنى فى غاية الدقة ، وكون السورة تختم — فى سياق الحديث عن المنافقين — بأن الله مطلع على كل عمل مهما خفى ، وكون هذا المعنى آخر ما تلقيه السورة فى النفس ليظل منطبعا فيها ، يجعل لهذا الختام وقعا خاصا .

وواضح أنى لا أعنى من هذا الفصل الحديث فى الخصائص الأدبية للسورة ، وإلا لكان المجال ذا سعة واسعة ، وإنما عنيت تتبع ما يتعلق بالمنافقين فى السورة ، فأردت أن أقول إن السورة ضيقت الخناق على المنافقين أيما تضييق ، ففى الألفاظ اتخذت منها السورة سهاما صائبة فى نحورهم ، ففضلا عما تفيده الألفاظ من معان وضعت لها وذكرت فى السورة من أجلها ، فضلا عن ذلك حملت السورة فى كل آية تقريبا لفظا كأنه السهم الذى يشير إلى المنافقين وينطلق نحوهم ، ويوجه أنظار المسلمين إليهم ، فمثلا لفظ « جنة » يوحى إلى المسلمين زيادة على معناه الأصلى بأن المنافقين يحاربون فى الخفاء ويجدون كل الجد فى هذه الحرب ، ويتخذون لهذه الحرب كل عدتها ، وكل الوقاية فيها ، وذلك بذكر لفظ الجنة الذى يقتضى تشبيههم بالمقاتل الذى يتخذ الدرع وقاء له ، على أسلوب الاستعارة ، وهكذا بقية الألفاظ التى مثلت لها بما ذكرت .

التوجيهات العامة

من أبرز ما أوضحته السورة فى إيجاز وتلخيص ما يأتى :

أولا : لفت أنظار المسلمين إلى ميدان غريب من ميادين الحرب العنيفة التى تدار ضدهم ، هو ميدان النفاق ، وذلك حتى لا يطغى على المسلمين الانصراف إلى ميدان القتال العلنى ، فيتركوا ظهورهم عراء لمؤامرات المنافقين وحربهم الباردة ، وقد عمدت السورة إلى تحديد المنافقين أعنى تحديد أعراض النفاق وخواص المنافقين من حيث الصفات اللازمة، ومن حيث السلوك على السواء كما سبق الاستشهاد على ذلك .

ونلمح ما يشبه الإشارة الخفية إلى انتداب الخاصة من المسلمين أولى الرأى والكفاية فى إدارة الحرب الخفية ضـــد المنافقين ، والتيقظ لكشف مؤامراتهم ولمح صفاتهم وسلوكهم تمهيداً لتحديدهم والدفاع ضد جرمهم المستتر على المســـلمين ، ولذلك كان الأمر موجها إلى شخص النبى عليه الســـلام فى قوله تعالى « فاحذرهم »

باعتبار أن النبي عنوان للخاصة من المسلمين ، أما توجيهات السورة لعامة المسلمين فهي تتمثل في نهيهم عن السلوك الذى يتميز به المنافقون والذى يخشى أن يؤدى بهم إلى النفاق كما سيأتى فى تفصيل هذه النقطة .

ثانياً : أشارت السورة إلى المسلمين أنه ينبغى أن يلتزموا الحذر الدائم من المنافقين،وألا يأمنوا لهم قط ، مهما توددوا إليهم أو أظهروا الاستقامة ، لأنهم لا يرجى إيمانهم أبدا ، وأشارت السورة إلى ذلك فى قوله تعالى « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » وقد قلنا إنه يمكن تعليل ذلك بأن المشركين والكافرين جميعاً — ما داموا أصحاب عقيدة ولو خاطئة — فإنهم يرجى إيمانهم ، لأنهم يحملون مبدأ الاعتقاد ، كالذى يعبد صنما أو ديناً باطلا ، ويعتقد فى قرار نفسه بأنه صاحب عقيدة ودين بعبادته لما يعبده، هذا الشخص يرجى منه الإيمان الصحيح، لأن حاله يدل على أن نفسه تحمل مبدأ الاعتقاد والتدين ، أما المنافق فهو فاقد لمبدأ الاعتقاد والتدين ، أى أن نفسه غير مستعدة بطبعها و تكوينها للإيمان من حيث هو ، وهذا شذوذ

فى تكوينه النفسى ، وخروج على الطبيعة البشرية السوية ، ولعل هذا الخروج على الطبيعة البشرية تفسير للفسوق فى قوله تعالى عن المنافقين « إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » فإن أصل الفسوق فى اللغة خروج الشئ عن شئ آخر وانفصاله عنه ، ومنه اللفظ العامى « فقس » من قولهم « فقست البيضة » غاية الأمر أن فيه قلباً مكانياً بتقديم القاف من فسق على السين ، وهو جائز فى اللغة ، ويكون معنى عدم هداية الله للفاسقين ، أن المخالف للشئ من حيث الطبيعة والتكوين لا يمكن أن يكون جزءاً من هذا الشئ ، كما لا يمكن أن يكون الحجر جزءا من البحر مثلا ، لأنه مخالف له من حيث التكوين .

وهنا يمكن أن يسأل سائل : إذا كان هذا الحال من المنافقين واضحاً فى عهد الرسول عليه السلام ، فكيف الحال بالنسبة لغير عهد الرسول كعصرنا مثلا ؟ أى بالنسبة للمنافقين فى عصرنا ، لأن شذوذ التكوين جائز فى كل زمان ومكان .

ونقول : إمكان وجود المنافقين فى كل زمان ومكان أمر غير

منازع فيه . وأما وسيلة تحديدهم ، فإن ما ذكرته السورة من صفاتهم وسلوكهم ، يمكن أن يميزوا به فى كل وقت وكل مكان ، ولكنهم من الناحية الدينية لم يكن هناك مجال — بعد عهد الرسول — لظهورهم ، وذلك لسبب واضح ، هو عدم وجود القوة الأخرى التى يتذبذبون بينها وبين المسلمين ، وهى قوة الكفر ، حيث أصبحوا يعيشون أمام قوة واحدة هى قوة المسلمين ، فلا يظهر نفاقهم حينئذ ، كما لم يظهر نفاقهم قبل الإسلام ، لأنهم كانوا أيضاً أمام قوة واحدة ، هى قوة الكفر .

نقول إنهم اليوم وإن لم يوجد المجال لظهور نفاقهم من الناحية الدينية ، فإن نفاقهم يظهر فى صور أخرى ، كخيانة الوطن ، وخيانة المبادئ ، ومحاربتهم للقيم والفضائل ، وصفات كثيرة ، كالغدر والتحلل الخلقى وما إلى ذلك .

ويمكن إرجاع ذلك كله إلى العقدة الأساسية فيهم ، وهى فقدانهم مبدأ الإيمان ، فالإخلاص للوطن مثلا فيه صورة من صور العقيدة بمعناها العام ، بمعنى الارتباط النفسى المعروف بين

الفرد ووطنه، لأنهم فاقدون للارتباط بينهم وبين أى شئ إلا ما فيه منفعتهم لأنه جزء من ذواتهم ، فلا يترددون فى خيانة الوطن أو المبادئ أو الفضائل متى وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ولو أن المسلمين استعادوا توجيهات القرآن الكريم نحو المنافقين وخاصة توجيهات سورة المنافقون وطبقوها على الشاذين منهم والخارجين على صفوفهم لفتحوا أعينهم على أمور رهيبة ، ولا استطاعوا أن يحددوا ويكيفوا أخلاق أولئك الذين يعملون ضد الإسلام والعروبة ، فيصيبون المسلمين والعرب بأشد البلاء وأعظم الضر ، من أمثال أولئك الذين يستبيحون لأنفسهم أن يبيعوا قومياتهم وأوطانهم وشعوبهم وأديانهم ومبادئهم بالتواطؤ مع المستعمرين والأعداء ، أو مع الأنانية واستغلال أرزاق شعوبهم لمصالحهم الشخصية ، ألسنا نرى فى أنحاء الأمة الإسلامية والوطن العربى أفراداً وجماعات يعملون ضد كل المعانى والمثل الكريمة ، فيشدون شعوبهم إلى وراء كلما همت أن تسعى إلى أمام ؟

وقد يستطيع فرد واحد أو أفراد معدودون بما لهم من جاه ونفوذ أن يعرقلوا جهود أمة كاملة نحو التحرر أو سعة الرزق ،

كما نرى من أولئك الخونة الذين يمالئون الاستعمار وأعوانه في أنحاء الأمة العربية ، وكأولئك الذين يستبيحون دماء الشعوب وأموالها لا لغاية وطنية أو دينية ، وإنما لمجرد الحرص على المنفعة الذاتية .

أقول ما أجدرهم اليوم أن يستعيدوا دراسة هذه التوجيهات الكريمة ، ثم يعرضوا عليها كل الشواذ والناشئين من صفوفهم ، ليروا أيهم منافق ، وأيهم غير منافق ؟ ثم بالنسبة للذين يثبت أن طبيعتهم طبيعة النفاق يستطيعون أن يحددوا أيهم يرجى شفاؤه من النفاق فيلزمونه العلاج مهما قسا ، وأيهم لا يرجى فيه الصلاح فيبترونه من بينهم بترا .

وفي هذا المقام نستطيع أن نقول : إنه — كما قلنا — إن النفاق لا بد له من ظروف معينة يظهر فيها واضحاً ، أهمها وجود قوتين متصارعتين يتذبذب بينهما ، وأن النفاق في صدر الإسلام لم يظهر إلا حينما وجدت القوتان المتصارعتان ، قوة الإسلام ، وقوة الشرك ، فلم يظهر قبل ذلك ، ولم يظهر بعد ذلك ، كذلك لو نظرنا اليوم إلى خيانات الوطن ، وخيانات الدين والمبادئ التي ظهرت

فى أنحاء الوطن العربى ، والتى نعتقد أن طبيعة كثير منها هى طبيعة النفاق ، لوجدنا أنها سارت على هذا القانون أيضاً ، فلم تظهر قبل اليوم حينما كانت قوة الاستعمار والرجعية مسيطرة على الوطن العربى ، لأنه لم تكن هناك قوة أخرى تصارعها ، ولكنه اليوم ظهرت قوى أخرى تصارع هذه القوة ، فظهرت قوة التحرر لتصارع قوة الاستعمار وأعوانه ، وظهرت قوة التقدم الدينى والقومى لتصارع قوة الرجعية والتأخر ، عند ذلك ظهر هؤلاء المنافقون فى صورة خيانات للوطن أو للدين والمبادئ ، أو بمعنى أدق ظهر أنهم خائنون بعد أن لم تكن هذه التهمة توجه إليهم من عامة الشعب ، لأن الظروف لم تكن مهيأة لظهور خيانتهم ونفاقهم ، وكذلك لن تظهر هذه الخيانات وهذا النفاق حينما تنتصر قوى التحرر والتقدم فى أنحاء الوطن الإسلامى والعربى بحيث لا توجد قوى أخرى تصارعها .

وهذا القانون الذى يسير عليه النفاق يثير فى حياتنا العربية اليوم نقطة ذات أهمية بالغة ، وهى أنه بما أن ظروف العالم العربى اليوم تعتبر تربة خصبة للنفاق ، وبما أن المنافقين يعتمدون على إخفاء العداء الشنيع ، وإظهار التودد البالغ ، وبما أن هذا النوع

من العداء أخطر معول تهوى به صروح الأمم وأمجادها ، لذلك كان على المسلمين أن يفتحوا عيونهم وعقولهم وإحساسهم بكل ما فيها من يقظة وحياة ليطهروا صفوفهم من هذا النوع الخطير ، وخاصة الصفوف التى تتركز فيها قوة الأمة ، كالصفوف العسكرية ، والصفوف السياسية والإعلامية ، مسترشدين بهذا الهدى الكريم ، وأن يعلموا أن ظروف المسلمين اليوم فى نموهم وصعودهم وصراعهم مع قوى الشر أقرب ما تكون إلى ظروف الإسلام فى طوره الأول حين كان يمر بهذه الظروف القاسية العنيفة التى يمر بها المسلمون اليوم فى صراعهم الداخلى والخارجى ضد قوى عديدة مختلفة .

وكما أن هذا الدين لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، كذلك علينا اليوم أن نعتصم بأسلحة الإسلام التى كفلت لأبنائه النصر المبين السريع على قلة عددهم وعدتهم ، ومن أمع هـــذه الأسلحة ، تلك التوجيهات التى انصبت على رءوس المنافقين .

ولست أريد أن أفيض فى هذا الحديث ، فإنه يصلح أن يكون بحثاً مستقلا ، وإنما نكتفى بلفت النظر إليه .

ونعود قليلا لنقول : فإذا لم يجدوا مجالا لإظهار نفاقهم ، وظلوا يعملون ما يعمله المؤمنون ، فماذا يكون وضعهم الديني ؟ .

فنقول حينئذ ما قاله القرآن الكريم ، من أنهم حينذاك يكونون مع المؤمنين لا من المؤمنين كما قال تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين » لأن الإيمان لا يسمى قط إيمانا إلا إذا كان صادراً عن صدق في العقيدة وعمق فيها .

ثالثاً : وكما يقول النبي ﷺ « من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه » كذلك توحي السورة بأن هناك مرحلة قريبة من النفاق ، وتشبه سلوك المنافقين ، فينبغي للمسلمين أن يتجنبوها حتى لا تؤدي بهم إلى نوع من النفاق .

وهذه المرحلة هي طغيان الناحية المادية في حياة المرء على الناحية الروحية الدينية والانصراف إلى متاع الحياة الدنيا حتى يشغل بها عن جانب الله ، وتشير السورة إلى ذلك في قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

وثمة أمر آخر توجه السورة إليه المسلمين ، وهو التضحية ، فلا خير فى إيمان لا يدفع إلى التضحية ، وحتى فى الأمثلة العادية فى الحياة ، نجد التضحية هى المقيـــاس الدقيق للإيمان والحب ، فالإيمان بأى شىء ، والحب لأى شىء ، إذا لم يقو على دفع صاحبه إلى التضحية فهو إيمان واه وحب زائف ، فبمقدار إيمان الإنسان بالشىء أو حبه له تكون تضحيته من أجله ، وتشير السورة إلى هذه التضحية فى قوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم » فإن التضحية كانت هى العقبة التى يتحطم عليها قناع المنافقين ، ويظهر عندها خلقهم الأصيل .

وهناك أيضاً الموعظة البالغة ، وهى الموت ، وما يترتب على عظته من أن الحياة ليست إلا ممراً عابراً يجتازه الأحياء فى سرعة وعجلة ليستقروا فى دار الخلود ، وحياة هذا شأنها ، وهذه غايتها ،

لا ينبغى أن تكون هدفاً للعاقل الحكيم حتى تطغى على منابع المثالية والسمو الروحى فيه .

والإسلام يدفع أبناءه دائماً إلى كل ما من شأنه أن يزيد إيمانهم عمقا ونفوسهم سموا ، فأولى بهم أن يتجنبوا كل ما من شأنه أن يدنو بهم من الضلال وخاصة النفاق .

فهرس

رقم الإيداع ١٩٧٣ - ٨٠
الترقيم الدولى ٧ - ٠٧ - ٧٢٩٤ - ٩٧٧ ISBN